

السليمانية

وهي مجموعة مقالات وخطب

وشعر منشور



الجزء الثاني

يحتوي على خطب ومقالات ارتقادية وشعر منشور

مزيلاً بأغراض رسم للمؤلف

﴿ طبعة ثانية ﴾

طبع في المطبعة العلمية ايوسف صادر في بيروت سنة ١٩٢٣

السيحاني

تأليف
محمد توفيق
السيحاني

إحيى
السيحاني



﴿ طبعة ثانية ﴾

طبع في المطبعة العالمة ايوسف صادر في بيروت سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٤

الريحانيات

يحتوي على مقالات اجتماعية ادبية انتقادية
وبذور للراعيين

الجزء الاول

يحتوي على خطب ومقالات انتقادية
وشعر منشور

الجزء الثاني

يحتوي على مقالات اجتماعية ادبية
انتقادية وخطب

الجزء الثالث

يحتوي على شعر منشور ومقالات
اجتماعية وساسيه

الجزء الرابع

تمن كل جزء من الاجزاء ١٥ عرشاً مصرياً

او نصف ليرة سورية * او ثلاثة ارباع الريال في الاقطار الامرك
او روتين وصف في البلاد العربية والمملكة العراقية

تطلب هذه الاجراء من يوسف صادر صاحب المطبعة العلمية

والمجلة القضائية في دروت * ومن جميع المكاتب السورية والمصرية





أهين
البي بي

بروت سنة ١٩٢٣

في الباب

لا المجد ولا الشهرة امنيتي القصوى . ولا الجاه ولا الثروة
 ولا السيادة ولا العظمة . وانما امنيتي الجوهرية الاولى هي ان
 اكون بسيطاً في اعمالى . صادقاً في اقوالى . مستقيماً في مبادئى
 وآرائى . فطرياً في تصرفى وسلوكى . حراً فيما احب وما اكره
 وبكلمة اخرى اود ان اكون دائماً نظيف الجسم تزيه العقل والقلب
 بعيداً عن التصلف والزخرف والعجب والمصانعة . بعيداً عن
 الجبن والخوف والتذبذب . بعيداً عن الخجل الذي يذل النفس
 ويميت الحقيقة . بعيداً عن الكذب والجريزة والمداهنة والرياء .
 على ان اقتبل ما يقابلنى من الصعوبات في مسالك الحياة باشأ
 جاداً ثابتاً صابراً متجلداً . على ان اناهض الفساد والضلال في
 الناس وألا أكره احداً من الناس . اود ان اعيش دون ان ابغض
 احداً . واحب دون ان اغار من احد . وارتفع دون ان ارفع
 على احد . واتقدم دون ان ادوس من هم دونى او احسد من هم
 فوقى . هذه هي سنتى وللغير ان يتخذوا لهم سنة توافقهم .
 للغير ان يسلكوا ذات المسلك اذا شاؤوا واستطاعوا . ليس من
 شأنى ان اتدخل في شؤنهم ولا ان ارشدهم منذراً او اعظهم

متأمراً متهدداً . عليّ ان اعيش صادقاً مسالماً مستقيماً . وللناس ان يعيشوا كما يطيب لهم . لا احب ان انصح احداً . حتى كانت نصيحتي بنت فكرة زائلة لا بنت حقيقة دائمة . ولا ان انضم الى حزب من الاحزاب . او طائفة من الطوائف . او جمعية من الجمعيات مهما كانت صبغاتها . ومهما تسامت غاياتها . ولا ان اساعد احداً لا يعمل في مساعدة نفسه . واذا كان في ما يلهم الناس الى الخير ويرفعهم درجة واحدة في سلم الرقي العقلي الروحي احب ان اظهره بالمثل والاشارة والالطف لا بالانذار والوعيد والتأمر . احب ان تشع حياتي ولا احبها ان تفرقع . احب ان تكون كاحد الكواكب السماوية . لا كسهم من الاسهم النارية

امين

بيروت في اول ايار سنة ١٩١٠

الخطب

في العزلة^(١)

١

جاء في الامثال ان في الحركة بركة وليس فيكم على ما
اظن من يجهل ذلك . ليس فيكم من ينكر صحة هذا المثل
الساتر ولا يعمل به . واما هذا الفقير فانه لا يعتقد بصحته ولا
يعمل بموجبه . وقد خطر لي منذ سنين ان اعكس الآية واجري
على ضدها . فقلت ان كان في الحركة بركة ففي الفلوات بركات . وفي
العود سعود وفي الهدو نمو وسمو . واشياء اخرى من هذا الباب
ولا يخفى عليكم ان في هذه الامثال حكمة تختلف عن حكمة
المثل السابق بل تختلف اختلافاً جوهرياً يحاكي اختلاف النفس
عن الجسد . فالحكمة فيها روحانية معنوية وحكمة من يقول
ان في الحركة بركة حكمة مادية عملية تجارية . لذلك آثرت الاولى
على الثانية . فواقفت عملي وخرجت من الوسط المضطرب لافكر
قليلاً في ما انا فيه لارى اين انا من نفسي ومن الله . وحقاً اني
تأملت لما وقفت متأملاً : تأملت لما رأيتني قريباً من الناس بعيداً
عن نفسي وعن الهي . فتركت الحركة والبركة للعمال ولبني
الاشغال وسلكت في نور الحكمة والحقيقة مسلكاً جديداً . وهذه
حالة لا بد منها لكل من تنبهت فيه الروح . هي طور من اطوار

(١) خطبة القيت في جمعية شمس البر ببيروت في ١٩ اذار سنة ١٩٠٨

الفيلسوف الاولي . هي اول ريشة في جناح الشاعر هي اول
 حادثة خطيرة في حياة الاولياء والانبياء . هي اول عقدة روحية
 عقلية يعجز عن حلها اكثر المفكرين . وجدت نفسي في هذه الحالة
 متألماً متحيراً متردداً . تلمت كثيراً لما رأيتني في الغربة بين شعب
 لا يعرف معنى السكينة ولا الراحة ولا الجمال . وجدت نفسي
 في بلاد فيها الحركة دائمة متواصلة . واما البركة فيقال فيها ما
 يقال في بعض الامراض انها حادة متقطعة . وجدت نفسي بين
 قوم يأكلون ماشين . ويقرأون آكلين . ويعدون النقود راكضين .
 ويعبدون الاوثان قائمين قاعدين . بل يقدمون ارواحهم واجسادهم
 ضحية لآلهة ماسمت باسمائها العصور الغابرة . عشت زمنأبين
 قوم يقال انهم مسيحيون ولكنهم في الحقيقة وثيون . وثيون
 بترفهم وبطرهم . وثيون باخلاقهم وشعورهم . وثيون بمطامعهم
 واستئثارهم . وثيون بتعدد الهتم . واما هياكل هذه الآلهة
 واصنامها فانك لا تشاهدها قائمة في الاسواق بل ينبغي ان تنظر
 اليها بعين الروح فتراها في كل حي وجماد يتحرك هناك تعال اذا
 معي لاريك آلهة هذا الزمان الجديدة . آلهة هذا التمدن الحديث
 مال معي لاريك من الهياكل والاصنام الواناً واشكالاً . فهذا
 صنم من القطن لآله البورص وذاك صنم من الفحم لآله المعادن .
 هذا صنم من السكر لآله الحقول وذاك صنم من الخشب لآله الغابات
 وهاهنا هياكل من المرمر والرخام لآله التجارة وهناك الهيكل

الاكبر المشيد من حجارة الذهب والفضة لاله الآلهة. اله الامة. اله المال. والناس هناك يعدون اموالهم راكضين من هيكل الى آخر ومن اله الى اخيه. وابدأ تراهم لهذه الآلهة الغريبة ساجدين. فيعبدونها ويخدمونها ويموتون في سبيلها. يعبدونها في كل حالاتهم. يخدمونها في حركاتهم وفي سكناتهم. فخرجت من بين هؤلاء المشركين طالباً في البرية ربي مثل ابراهيم. خرجت من بينهم وانا على اعتقاد ان المرء اذا قرب من العالم الجديد يبعد عن الطبيعة وعن الشعر وعن الجمال الروحي وعن الله. ولذلك حولت وجهي الى مشرق الشمس، وعدت في طريقي الى ارض الانبياء. عدت الى وطني لاقترب من جمال الشرق الشعري وجماله الطبيعي وجماله الروحي بل الالهي. اي الجمال الدائم الابددي الذي لا تشينه الحالة السياسية المختلفة ولا الحالة الاجتماعية المعتلة.

عدت الى مسقط رأسي باحثاً عما اضعته هناك ايام الصبا. افلتت من اشراك التمدن والحمد لله وفردت هارباً الى الفريكة. على كتف الوادي وبالقرب من كروم اجدادي نصبت خيامي. فوق نهر الكلب وقبالة جبل صنين رفعت رايتي البيضاء عوضاً عن العلم الاحمر الذي وضعته في يدي احدى بنات الحرية في البلاد الاميركية. رفعت علم السلم فوق فلسفتي الاجتماعية بعد ان كان علمي علم القتال وكتبت على بابي - في اصلاح الفرد اصلاح الامة وفي تهذيب الشعب اصلاح الرؤساء والحكام - .

نعم سادتي ان التهذيب خير من التجزيب والتخريب . على ان ذلك ليس من موضوعي هذه الليلة فالمجال ضيق لمثل هذا البحث واضيق منه منبر هذه الجمعية .

عدت الى وطني طالباً فيه راحة العقل وراحة النفس وراحة الجسد . بل طالباً فيه شيئاً اشرف من كل ذلك واسمى - طالباً في الطبيعة ومنها ما ينسي المرء عقله ونفسه وجسده . عدت ياسادتي لا كما عاد يوليوس قيصر الى رومية او هوجوالى باريس عدت قانماً شاكراً راضياً وتذكرت السندباد لما عاد من سفراته و ابا العلا . لما عاد الى معرفته . فشكرت الله كالسندباد على سلامتي في الغربة ولجئت كابي العلا الى العزلة في قريتي هرباً من الحضارة ومتاعبها وشغفاً بالطبيعة وجمالها . وحباً بالتأمل ولذاته . وتقرباً من الله وبركاته . فدخلت هذه المدينة كما يدخل الكهان الهيكل او اللص البيت . دخلتها من باب السرفلم يدربي من الاخوان احد . وصعدت الى الجبل ولم يدربي احد . واقت هناك زمناً في ظلال الصنوبر ولم يدربي احد . فأضجعت على العشب وراسي في ظل وزالة زاهرة - انا للطبيعة وانا اليها راجعون - وشكرت الله شكراً جزيلاً ووددت لو يكون بيني وبين المدن اضعاف ما بيني وبينها من الوهاد والجبال والبحار .

واظنتي اخطأت مرة فرددت بصوت عال صدى صوت نفسي وما علمت ان للاشجار عيوناً وللصخور آذاناً . بل ما علمت ان النهر

يحمل الى المدينة صدى صوت الوادي وصدى ساكنيه . ففي صباح يوم من ايام فصل الشتاء سمعت حديثاً داربين شجرة كبيرة من الصنوبر واخرى صغيرة او بين ام الغاية واحدى بناتها قالت الابنة : من هذا الغريب الذي لا يخاف السكنى معنا في هذا الشتاء فاجابت الام : ما هو بغريب يا بنيتي . وانما هو من نبات هذه الارض ومن سنديان هذه الجبال هو من ابناينا يابنية . وقد طالما حملته وحملته من ثماري لما كان صغيراً . قد طالما فرشت له من ريشي وظلي ما يزيل تعب الجسد وهم الفواد وبعثت اليه من ارج نسيمي ما يروح النفس ويحييها ومع ذلك فقد هجرنا زمناً طويلاً وعاد اليوم ليكفر عن ذنوبه امامنا وفي ظلنا . حبيه يابنتي فانه يجبنا .

وبمثل هذا كانت الاشجار تفشي اسراري الى النهر والنهر يحملها الى البحر والبحر يلقيها بلا اكرات على شواطئ هذه المدينة . وقيل ان الصيادين سمعوا ذات يوم في هدير الامواج اصواتاً غريبة مطربة فظنوا ان احد الجن يكلمهم بلساننا العربي الشريف . وقيل انهم فهموا من الغاز الامواج شيئاً يسيراً واشاعوا في البلد اشاعات تحولت بعد ايام الى خرافات وخزعبلات تشير كلها الى ان في وادي الفريكة ناسكاً تسجد له الصخور وتخاطبه الاشجار وتكلمه السواقي وتستشيره الطيور . فاستغربت الخبر كما استغربه الناس وبعد ان فتشت في الوادي عن الناسك واعيان

التفتيش كتبت الى احد الاصدقاء كتاباً هزأت فيه من هذه الخرافات التي قصها البحر على الصيادين واذاها الصيادون في المدينة فزاد الكتاب الطين بلة لان الادباء الذين سخروا مثلي بهذه الخرافات اعتقدوا بعدئذ صحتها وطفقوا ينشرونها في اندية الادب فتجسمت الاشاعة حتى استحال الى خرافة واصبحت في اعتقاد الناس حقيقة راهنة . وكذلك تنشأ الخرافات وتستولي على الناس فاهتم بعض اعضاء هذه الجمعية بالامر وكتب احدهم الي لا صدقه الخبر . ثم جاءني من الجمعية نفسها كتاب تسألني به ان اتحفها بشي . من اخبار الناسك واسفاره . وبعبارة اوضح دعيتني الى الخطابة في حفلتها السنويه منذ سنتين فلبيت الدعوة وبعثت الى الجمعية بشي . من ثمار نفس الناسك المذكور ^(١) ولبثت انتظر جوابها وبينما انا اتوقع منها كتاب شكر جاءني الرسول بعد اسبوع ومعه الثمار التي بعثتها . ثماري اعيدت الي . ردت الجمعية هديتي بلا عذر ولا شبه عذر . أرجعت الثمار واغفلت الاعتذار وبعثت مع الرسول تقول قد فحس الطبيب ثمارك فوجدها مضره بصحة هذه الامة . وجد فيها مكروبات غريبة خبيثة عديدة فكانت هذه منها اهانة فوق اهانة لكنني قبلتها شاكراً وحسبتها من جملة ما ينبغي ان يعرض عنه المرء في عزله . حسبتها مما ينبغي ان نترك وراءنا اذا حولنا وجهنا نحو شمس النفس الشارقة من وراء جبال

(١) وهي خطبة « هنا وهناك وهناك » التالية .

الحقيقة المرسله ما فاض من نورها فوق مروج الشعر وبحيرات الخيال . فظل الساسك والحال هذه هائماً في واديه . ولم يدر ان الجمعية لم تزل تناديه . على انه لم يكدر يرفع طرفه الى سماء الروح ويلمس بيده ما تجسم امامه من السعادة الروحية الحقيقية حتى جاء هذا الشتاء وفيه ما كتب له بل عليه من الشدة والبلاء . فهجر صومعته في الجبل مضطراً واعتاض عن شذا الاودية بروائح الادوية وعن الاولياء . بالاطباء . مع ان الفرق بين الاولياء والاطباء قليل لا يستحق الذكر . فكم من طبيب فاضل يستحق ان يطوب قديساً او يدعى ولياً بعد موته . فقد تعرفت بفضل آامي العصبية بعدد وافر من هؤلاء الافاضل وبان لي بالاختبار ما كنت اجله . تحققت ان الفرق بين الطبيب والكاهن كالفرق بين الكاهن والمحامي . كلهم نفعنا الله بعلمهم وبرّهم يتعاطون الجريزة . كلهم يتاجرون بشي . من الحقيقة وبكثير من الخزعبلات والاهام . على ان الطبيب ارفع درجة من الكاهن والكاهن ارفع درجة من المحامي . والثلاثة ياسادتي من سلالة واحدة ومن بطن واحد . نعم ان الطبيب والكاهن والمحامي ثلاثة عقبان من بيضة واحدة . ومن الشرور ما كان لازماً للبشر . من الشرور ما هو نافع للانسان . وقد كنت اسير شي منها في هذه المدينة لما جاءني رئيس هذه الجمعية فأسرني ايضاً بلطفه وجميل ادبه وكلمني مرة اخرى في امر الخطابة . الح عليّ الرئيس وعدد من الادباء .

باسلوب جعلني اظن ان الجمعية تنوي ان تحاصرني في الفريكة وتعتقد جلستها هناك اذا كنت لا اتكلم في حفلتها هنا . فخفت من المضايقة في عزلي ونتيجة خوفي ايها الكرام وقوفي امامكم الآن خطيباً . عفواً سادتي ما جئتم خطيباً الليلة بل محدثاً . وسأحدثكم في موضوع العزلة ومنافعها ومضارها .

٢

العزلة اما داءٌ واما دواءٌ واما غذاءٌ . هي داءٌ لمن لا يجدي نفسه ما يغييه عن معاشره الناس ولو زمناً قصيراً . وهي دواءٌ لمن سئمت نفسه من ملاذ هذا المجتمع وموبقاته من سروره وشروبه فيعود الى امه الطبيعة لتداويه بنور شمسها وعليل هوائها وشذا رياحينها وهي غذاءٌ لمن يخرج من الهيئة الاجتماعية والنفس نافرة من محيط هي غريبه فيه . يعتزل الناس طالباً في الطبيعة الراحة التي لا يعرفها الناس . واللذات التي لا يشعر بها الناس . والتعزية التي قلما تعزي عامة الناس . نفس الاول خامدة جامدة . ونفس الثاني سقيمة عقيمة نفس الثالث من الانفس السامية الكبيرة التي قلما تنام . فهي تفيق من هجعتها قبل صياح الديك فتفتح عينيها في ظلمة الليل الخالكة وتقاسي قبل بزوغ الفجر من العذاب والحيرة اشدهما . تبتدى هذه النفس بالمقاومة والتمرد فتقاوم القوات التي تعترضها في طريقها وتمرد علي كل من يحاول ابقائها في الظلمات الدامسة . تسير بنور مصباحها الداخلي الى ان يخرج من الظلمات بفضل ما فيها

من الشجاعة والاقدام والثبات فتتدرج من الظلمة متمرده الى العزلة هادئة وتعاني فيها بادئ بدء، نوعاً جديداً من العذاب . تعاني هناك عذاباً هو اس كل لذاتها الروحية بل هو العذاب الذي يقاسيه من تعودت اعصابه المخدرات والمسكنات اذ ينقطع عنها دفعة واحدة . ومن العزلة تعود هذه النفس المحررة المستنيرة المتمردة الى المجتمع لتتم فيه ارادتها لتتير ولو زاوية صغيرة فيه بما فاض من نورها .

شبهت الانقطاع عن الناس بالانقطاع دفعة واحدة عن المسكنات التي يعتادها المريض . فهل خطر لأحدكم ان يستشير ربه بواسطة الطبيعة في امر روجه المريضة كما يستشير الطبيب في امر جسده . ايدهشكم قولي ليم اننا كلنا مرضى بوجه ما . وفي هذا المجتمع وخصوصاً في هذا اليوم بما فيه من دواعي الامراض والمهموم والاحزان تنسينا الحركة الدائمة الآمنا . ولا اذكر الآن اي علماء الالمان قسم الناس الى ثلاثة اقسام فقال : قسم منهم يولد للمستشفى وقسم للمرستان وقسم للبادية . اي ان ذلك العالم الالمانى يقول ان الناس اما عرضى واما مجانين واما برابرة ومع ما في هذا القول من الغلو والضلال والكفر - اذ كفر العالم بالنفس واساء فهم نواميس الطبيعة وغالى في تقبيح الانسان - مع ما في قوله مما ذكرت فهو لا يخلو من الحقيقة . غير انها حقيقة ناقصة متجزئة واما الحقيقة كلها الحقيقة الشاملة الابدية فهي ان الناس كلهم

سواء من وجهة الفيلسوف . ومن هذه الوجهة ايضاً يمكننا ان
نقسم البشر الى قسمين اوليين . قسم الاحياء روحياً وقسم
الاموات . وهاتان الطبقتان نشاهدهما في كل شعب حضرياً كان
او بدوياً . ففي البداوة اناس تتنبه فيهم الروح وتنهض من سباتها
كما في الحضارة . بل في البدو تبلغ الروح المتفردة الكبيرة اعلى
درجة من السمو والقوة والجمال . فيخرج من البادية رجال كما
يظهر في المدن رجال . وان نبغ في نويرك المخترعون وفي لنديرا
العلماء . وفي برلين الفلاسفة وفي باريس الشعراء . وفي فلورنسة
المصورون والنحاتون ففي البادية ينشأ الانبياء . لكل بلاد مزية
طبيعية ثابتة دائمة . وفي كل نفس بشرية شي من سماء البلاد التي
نشأت فيها ومن أرضها . فيها شي من تير وطنها ومن ترابه . من
خير هوائها ومن شره . من فتوره ومن نشاطه . من هدوه ومن
هياجه . فالناس اذاً كلهم سواء من وجهة الفيلسوف . الانسان
واحد من بلاد الزولو الى شطوط التروج ومن ثلوج السكا الى
اطراف اليابان . الناس كلهم سواء من حيث ان الامراض
والجنون والتوحش كلها تنتاب كلاً منا في اوقات مختلفة وبدرجات
متفاوتة . ولا يفوتنا ان نذكر مع هذه الشدائد كلها نعمة واحدة
شاملة . فانا ممن لا يياسون ولا يقطعون الرجاء مهما توغل الانسان
في الجهل والجنون والتوحش لانني على يقين ان النفس في كل
منا تفيق ولو مرة واحدة من سباتها في سياحتها هذه العالمية .

تنهض النفس من غفلتها فتجبي* ولو بعمل واحد شريف خالص لوجه الله . ترىنا من النخوة والمعروف والاحسان ما يزيل عن وجه الحياة شيئاً من تقطبه وعبوسته . تنهض النفس من ظلماتها من تحت اثقالها المادية . من بين اغلالها الاجتماعية . من تحت اهوائها وشهواتها واغراضها الذميمة لتقول للناس : - انني لم ازل حيةً واعرف معنى الحب والتساهل والحنان . انني لم ازل حيةً واعرف معنى الحق والعدل والحرية . فيمكنني ان اتسامى الى ما فوق الشرف المتعارف بين الناس . الى ما فوق الفضيلة المصطلح عليها . الى ما فوق القوانين والشرائع . الى ما فوق قداسة الاديان وخزعبلات بدعها . اي لا بداً لكل امرء من ساعة ولو في حياته كلها يظهر فيها بمظهر الفضيلة الصادقة الفضيلة المجردة النامية الحقيقية فيخضع للنفس الامارة بالخير لا بالسوء . لتظهر فيه محاسنها الجليلة ولذلك ينبغي ان نقول ان الامراض والجنون والتوحش وحسنات النفس او يقظاتها تنتاب كلاً منا على الاطلاق . تنتاب كلاً منا في اوقات مختلفة كما قلت وبدرجات متفاوتة . ومن هذه الوجة المرتفعة وجهة الفيلسوف العمومية كلنا لاشك متساوون . اي اننا كلنا مرضى بنوع ما وكلنا نتخذ الاشغال نلهو بها . نسكن بها الآمانا . نخدر بها همومنا . نضمد بها جروح صبرنا ورجائنا . ننعش بها آمالنا . وعند ما يقف احدنا ليتنفس قليلاً ليتنشق نسيم السحر الجميل او بالحري ليدع عمله هنيهة ويستريح تعاوده

آلامه مضاعفة كما تعاود الاوجاع المريض عند انتهاه فعل المرفين وماهي هذه الآلام ياسادتي ؟ اروحانية هي ام جسمانية ؟ فالطبيب يقول لنا انها جسمانية والكاهن يقول انها روحانية . والحقيقة ههنا اقرب الى جانب الكاهن منها الى جانب الطبيب . الآلما روحية اكثر منها جسدية . يعود الرجل من اشغاله في المساء او من ملامهيه بعد نصف الليل فيستلقي على سريره متكرهاً متأففاً متذراً . فيشكو وقد خارت قواه من الم في اعصابه او في معدته او في رأسه . ويظن ان اوجاعه موضعية . يظنها جسدية . والحقيقة على ما ارى هي خلاف ذلك . فالجسد لا يمرض من العمل واعضائه ترداد قوة ومرونة ونشاطاً بالممارسة والتمرين وهذا ناموس طبيعي . من اين اذا الآلما واوجاعنا . ماهي اسبابها اين مصدرها . ايمكن ان يكون لها مسبب غير مادي . ايمكن ان تكون الآلما الجسدية ناتجة عن ألم اصلي اساسي جوهرى روحي ؟ سوال اجيبكم عنه حالاً بلا تردد وبالايجاب . نعم سادتي وسيداتى ان مصدر هذه الآلام الروح فالروح منا تن وتتاوه وصدى ازينها يظهر في كل جوارحنا وفي كل حواسنا . الروح تتألم من الضغط عليها . من احتقار الانسان اياها . من اهماله شؤونها . من اعتضامه حقوقها . الروح تتأوه من قيود السلطة كما انها تتألم من قيود العبودية . فالرئيس والمرؤوس سواؤهم من هذا القبيل . الظالم والمظلوم يشكوان من مرض واحد فالروح في كل . منها تتألم من حيوانية الانسان

الخبیثة . من اهوائه من ظلمه من استشاره من بغضه من تحشه
من ذله من جهله من جنونه . فاذا كانت الاشغل تسكن آلاء
النفس فالعزلة تضعف شوكتها . ويستأصلها العود الى الطبيعة .
ورب قائل يقول اريد ان يكون الناس كلهم نساكاً وزهاد
وكيف يتسنى ذلك . فالجواب ان ذلك غير ممكن وغير مطلوب .
فالعزلة انواع . وربما امتهنت حرمة القاموس وتوسعت قليلاً بمعناها
المحدود . فقد تكون شوقاً في النفس لسبر غور النفس . لادراك
كنه قواها . لكشف الحجاب عن بعض اسرارها . وهذي هي عزلة
الفيلسوف . او قد تكون اعتصام النفس بعالمي الخيال والجمال
فراراً من مسؤولية الحياة الاجتماعية وواجباتها الصناعية . وهذي
هي عزلة الشاعر . وهي ممكنة في المدينة وبين الجموع كما في
الصحراء . او في الجبال لان الشاعر وان خالط الناس وحدثهم فهو
دائماً فوقهم وبعيد منهم . ثم قد تكون العزلة طمعاً في النفس بفتح
ممالك عالم النفس . ورفق . - لازم الحقيقة والحب والحق فوق صروحها
وهذه عزلة الانبياء . . وهناك انواع اخرى من العزلة لا يهمنا
ذكرها لانها تغيرت عما كانت عليه حين قال المتنبي بيته المشهور
في وصف الاسد

في وحدة الرهبان الا انه لا يعرف التحريم والتحليلاً
قد اتضح لكم ان الميل الى الوحدة والاعتزال ينشأ في النفس
وعنها . وكما ان النفس تطلب المعرفة فكذلك تبتغي شيئاً من

آلامه مضاعفة كما تعاود الاوجاع المريض عند انتهاء فعل المرفين وماهي هذه الآلام ياسادتي ؟ اروحانية هي ام جسمانية ؟ قالطبيب يقول لنا انها جسمانية والكاهن يقول انها روحانية. والحقيقة ههنا اقرب الى جانب الكاهن منها الى جانب الطبيب. الآلما روحية اكثر منها جسدية. يعود الرجل من اشغاله في المساء او من ملامه بعد نصف الليل فيستلقي على سريره متكرهاً متأففاً متذمراً. فيشكو وقد خارت قواه من الم في اعصابه او في معدته او في رأسه . ويظن ان اوجاعه موضعية . يظنها جسدية . والحقيقة على ما ارى هي خلاف ذلك . فالجسد لايرض من العمل واعضائه . ترداد قوة ومرونة ونشاطاً بالممارسة والتمرين وهذا ناموس طبيعي . من اين اذاً الآلما واوجاعنا . ماهي اسبابها اين مصدرها . ايمكن ان يكون لها مسبب غير مادي . ايمكن ان تكون الآلما الجسدية ناتجة عن ألم اصلي اساسي جوهرى روحي ؟ سؤال اجيبكم عنه حالاً بلا تردد وبالايجاب . نعم سادتي وسيداتتي ان مصدر هذه الآلام الروح فالروح منا تن وتتاوه وصدى انينها يظهر في كل جوارحنا وفي كل حواسنا . الروح تتألم من الضغط عليها . من احتقار الانسان اياها . من اهماله شؤونها . من اعتضامه حقوقها . الروح تتأوه من قيود السلطة كما انها تتألم من قيود العبودية . فالرئيس والمروثوس سوائهم من هذا القبيل . الظالم والمظلوم يشكوان من مرض واحد فالروح في كل . منها تتألم من حيوانية الانسان

الخبیثة . من اهوائه من ظلمه من استشاره من بغضه من ریحسه
من ذله من جهله من جنونه . فاذا كانت الاشغل تسكن آلام
النفس فالعزلة تضعف شوكتها . ويستأصلها العود الى الطبيعة .
ورب قائل يقول اريد ان يكون الناس كلهم نساكاً وزهادا
وكيف يتسنى ذلك . فالجواب ان ذلك غير ممكن وغير مطلوب .
فالعزلة انواع . وربما امتهنت حرمة القاموس وتوسعت قليلاً بمعناها
المحدود . فقد تكون شوقاً في النفس لسبر غور النفس . لادراك
كنه قواها . لكشف الحجاب عن بعض اسرارها . وهذي هي عزلة
الفيلسوف . او قد تكون اعتصام النفس بعالمي الخيال والجمال
فراراً من مسؤولية الحياة الاجتماعية وواجباتها الصناعية . وهذي
هي عزلة الشاعر . وهي ممكنة في المدينة وبين الجموع كما في
الصحراء . او في الجبال لان الشاعر وان خالط الناس وحدثهم فهو
دائماً فوقهم وبعيد منهم . ثم قد تكون العزلة طمعاً في النفس بفتح
ممالك عالم النفس . ورفق . الام الحقيقة والحب والحق فوق صروحها
وهذه عزلة الانبياء . وهناك انواع اخرى من العزلة لا يهمنا
ذكرها لانها تغيرت عما كانت عليه حين قال المتنبي بيته المشهور
في وصف الاسد

في وحدة الرهبان الا انه لا يعرف التحريم والتحليلاً
قد اتضح لكم ان الميل الى الوحدة والاعتزال ينشأ في النفس
وعنها . وكما ان النفس تطلب المعرفة فكذلك تبتغي شيئاً من

العزلة تتغذى اثنائها بالمعرفة . يقول الافرنج في السياحة تكملة التهذيب . اي ان المرء مهما درس وطالع وتعمق في العلوم وتغلغل فتهذيبه يظل ناقصاً اذا كان لا يعرف من العلم الاً مسقط رأسه او عاصمة بلاده . فاذا كان في السياحة تتمه التهذيب ففي العزلة تتمه السياحة . لان المرء لا يكون قد ساح ابدأ اذا كان لا يعتزل قليلاً بعد سياحته في العالم ليحاسب نفسه . ليفحص بتأن وهدوء ما مخادعها . ليغربل ما فيها من الحقائق والخرافات والآراء السديدة المختلطة مع الخزعبلات . وبكلمة اخرى ليسقي النفس من ماء الفكرة الذي يتقطر ويتكرر في العزلة . ولا تظنوا ان كل من التجأ من المفكرين الى هذه الطريقة انتفع بها والذي لا ينتفع منها لا يستطيع نفع الناس .

لما كنت في نوريك قصدت يوماً مدينة كنكرد بالقرب من بسطن (وهي المدينة الصغيرة التي اتحفت العالم الجديد باكبر شعرائه وفلاسفته) لازورف فيها بيت الفيلسوف امرسن والخرج الذي بني فيه الشاعر طورو مسكبه او بالحري كوخه للعزلة فعاش فيها متنسكاسنتين والى هناك كتابه النفيس في فلسفة العمران وفلسفة الانفراد . والكاتب الذي كان رفيقي ودليلي في هذه الحجة - وهو شيخ جليل في الصحافة وفي السن - كان رفيقاً او صديقاً ايضاً لاكثر شعراء كنكرد وفلاسفتها الغابرين فسألته عما اذا كان في المدينة اليوم من يعد من طبقة هؤلاء الرجال العظام

فقال ان الطبيعة يا صديقي لا تجود علينا بالنوابغ كل سنة فهي لا تقدم للعالم الاً افراداً قلائل كل عصر وما كل من اعتصم بالعزلة يصل الى ذروة التفرد والذكا. فمذ سنين جاء هذه الاصقاع شاب انكليزي واختار بيت طورو هذا مقراً لعزله وعاش فيه كما عاش طورو سنتين ولكنه ينس بعد ذلك وهجر كـ كـ كر د ومن ذلك الحين لم نسمع عنه شيئاً .

فـعزلة طورو اذاً او عزلة الـبابغة اثمرت من الادب والشعر والفلسفة ما يعد من طبقة ما كتبه اكبر نوابغ العالم . وعزلة الثاني العقيمة اضرّت بصاحبها لانه لم يتدارك الخطر قبل حلوله وفاته ان الوحدة الطويلة الامد ما اعدت لمثله وان نفسه لا تطلب مثل هذا الغذاء . لذلك لا اعمم في قولي ولا اغالي بمحاسن العزلة ومنافعها اذ ما كل من اعتزل تفرد ولا كل من تفرد افاد الانسانية . على ان العزلة تنفع الكل اذا اخذ منها كل بقدر ما تطلبه نفسه او بالحري اذا عرف كل انسان كمية الجرعة التي ينبغي ان يأخذها فمن نفس متجمدة لا تطبق العزلة اكثر من اسبوع الى نفس متوقدة لا ترضى باقل من سنة او اكثر وبينهما تفاوت المدد كما تفاوت العقول . هذي هي القاعدة . فمن جرب العزلة بحكمة واعتدال انتفع ولا شك منها فهو ينتفع عقلياً وجسدياً وروحياً اذا احسن استعمال الدواء .

وافضل ما في العزلة للمفكرين انها تقرب الفرد من نفسه .

فالحياة الاجتماعية كما اتضح لكم مما ذكرته تبعدنا عن انفسنا حتى
 نجعلها جهلاً فاضحاً . لان معرفة المرء نفسه غير ممكنة في اي
 حال من احوال هذا المجتمع المضطرب . واذا جهل المرء نفسه
 بعد عنها بعداً شاسعاً . وان حاول خدمة الانسانية وهو بعيد
 عن نفسه اي جاهلها لا يستطيع الى ذلك سبيلاً مهما اجاد بيانه
 وفصاحته ومهما بالغ في آرائه واكبر الناس دعواه . لا خير في
 مثل هذا مهما صاح ونادى ودعا القوم وادعى . وان صياح
 المصلحين ليذكرني دائماً بهدوء الفلاسفة . بل يذكرني بما جاء في
 التلمود من حديث دار بين اشجار الغابة واشجار البستان قالت
 اشجار الغابة لأشجار البستان : لماذا لا نسمع لاغصانك صوتاً
 ولا صدًى فاجابت اشجار البستان : لاني مشغلة عن الولة
 باناء ثماري . ثم سألت اشجار البستان اشجار الغابة قائلاً . ولماذا
 نسمع لاغصانك هذا الدوي وهذه الجلبة فاجابت اشجار الغابة :
 لكي يشعر الناس بوجودي .

لذلك قلت ان كان في الحركة بركة ففي الفلوات بركات وفي
 الهدوء وسمو . فالنور ياسادتي ينبثق على العالم هادئاً ساكناً .
 وان شمس الحكمة التي تجب غالباً عند هبوب العواصف والزوابع
 فمن الانفس السامية المتفردة الهادئة ينبثق نور الحب ونور
 الحكمة ونور الحقيقة . وفي الانفس السامية المتفردة الهادئة ينابيع
 الجمال كلها . جمال الفنون وجمال الروح وجمال الحياة السعيدة .

والى الانفس المتفردة السامية الهادئة تعود حسنات التمدن
الحديث لترينا فيها اسبابها . لذلك كتبت فوق بابي :

في اصلاح الفرد اصلاح الامة
وفي تهذيب الشعب اصلاح الرؤساء والحكام



هنا وهناك وهناك^(١)

ايها السادة والسيدات .

دعي مرة اديب للخطابة في حفلة مثل هذه فلي الدعوة فرحاً سروراً لأنها كانت اول ما جاءه من القوم وكان الخطاب باكورة عمله فسود الاوراق وبيضها واستعد لخطابه استعداداً يليق بوقفته الاولى على المنبر . وليكن لما وقف امام القوم خائته الحافظة وجمعت القرية فاعتذر قائلاً : لما دخلت هذا المنتدى لم يكن احد يعرف من خطابي شيئاً سوى الله والداعي واما الآن فبأسف اخبركم ان لا احد يعرفه سوى الله . فاستحسن الحاضرون النكتة وعفوه من الخطابة . ولا تظنوا دعاكم الله ان الكلام الذي اعددتة انا لهذه الحفلة لم يطلع عليه قبل هذه الساعة سوى العالم بذات الصدور كلا . فقد اضطرني اصدقائي الى مراعاة اصطلاحات البلاد وقالوا ابعث ابنك هذا الى المستشفى بلا عناد . فبعثته بعد ان دسمته من العين . وقرأت عليه التعويذتين وهناك استلمه مولانا الطبيب وكفى بذلك تلميحاً لايب . وعاد الي بعد ايام حسبتها سنين . وعلى بدنه اثار الموضع والشرط والسكين . فتصالحنا وكلانا يقول الحمد لله رب العالمين . ويجب ان اتقف عند هذا الحد في التسجيع

(١) وهي الخطبة التي اعددتها حفلة جمعية شمس البر السنوية في السنة

الاخيرة من عهد عبد الحميد فرفضتها اللجنة خوفاً من المراقبة .

والكنايات خوفاً من ان تحسبوني اتلو عليكم شيئاً من سجع الكهان او مقامة من مقامات بديع الزمان. وقد يتبادر لذهنكم اني اوردت القصة ليكون حظي منكم حظ ذلك الخطيب من قومه ولكنني لا اطلب كل هذا. انا ادفع الآن نصف ما علي من الدين لهذه الجمعية بشرط ان تعفوني من النصف الآخر ولكنني اعدكم بدفعه مع الفائدة متى تحسنت الاحوال على انني اود لو كنت مطلق الحرية لا ادفع كل ما علي الآن. ان قوتي يا سادتي في حريتي لا في شعري اود لو تكون وقفتي هذه الاولى امام قومي في وطني غير مقيدة بقبول التقية والاحوال. ولكن لسان الحال افصح من لسان البيان وقد تكون الكلمة المحفوظة في الصدر اشد تأثيراً في النفس من الكلمة المقولة

لقيت على شاطيء البحر وانا قادم ذات يوم الى المدينة شيئاً ذكرني بما يليق ان افتتح به هذه الكلمات القليلة التي تحوم حوماً حول موضوع يتعود من ذكره الناس. ذكرني ما لقيته على ساحل هذه البلاد السورية وسأخبركم عما لقيته بعدئذ او لكم ان تنبهوني اذا فاتني ذلك. ذكرني بمدينة في البلاد الاميركية قضيت فيها خمس عشرة سنة بين قومي والاعجام فلم امل كل الميل الى اولئك الاميركيين ولم اهجر كل الهجر اخواني السوريين. لم يكن جفاً قومي ليقريني من الاعجام ولا اكرام الاعجام ليبعثني عن قومي. ولقد سمعت من اصدقائي الشعراء الاميركيين من الكلام ما

يضعف الشواعر الوطنية لو كان في مثل هذا الضعف استعداد .
وقد قال لي احدهم مرة بعد ان قرأ في احدى الجرائد الاميركية
خبر قيام النزالة السورية علي بسبب كتابي الاخير دع ذكر الوطن
والامة والزم الشعر . الشاعر الحقيقي هو ابن العالم علي الاطلاق
وكل وطن صالح هو وطنه . فرنت هذه الكلمات في اذني ولا سيما
لان الناصح كان شيخ في السن وفي صناعته . وهجرت اذ ذاك
قومي الى حين ونفضت عن اوراقى غبار لغتنا هذه الشريفة
واخذت انظم في اللغة الانكليزية وانقل الى الاعجام ما عثرت عليه
من كنوز العربية . وثبت عندي اذ ذاك ان الشاعر الحقيقي
يخلص الخدمة لوطنه اولاً ومن ثم يتدرج الى خدمة الانسانية .
او يخدم الوطن والانسانية معاً اذا كان من النوابغ الحقيقيين
النادرين في كل امة وبلاد . وبعد ان فكرت في امري هذا
وسمعت المباحثة التي جرت بين ذاتي السوري وذاتي الاميركي
حكمت للاول على الثاني ورضيت ان اكون من الطبقة الاولى
في الوطنية ولو جعلني ذلك في الطبقة الوسطى من الشعر . وهكذا
عدت الى الكتابة من اليمين الى الشمال ولكنني حفظت في
قلبي زاوية للغة التي اكتسبتها في العالم الجديد . ولو اصنعت الى
قول صديقي الشاعر الاميركي لما كنت ظفرت بمشاهدتكم هذه
الليلة ولكم ان تعكسوا . نعم ان وامي بلغتي وبوطني لقوي شديد
ولو سألتهموني ايراد الاسباب التي توجب هذا الولع لقلت لكم

احب لغتي لانني احب نفسي واحب وطني لانني احب قومي
 وقد يحملني هذا الولع والحب الى الغلو احياناً . فقد قرأت مرة
 ان غالينوس كان يقول اجود هواء في الدنيا هواء بلاد اليونان .
 وقال ابن رشد ان اجود هواء لهواء قرطبة (بلده) وقال ملتن ان
 الهواء النقي المحيي لا يهجر ابداً لندره واقول انا واظنكم كلكم تقولون
 معي ان هواء لبنان لهو نفس الآلهة بالذات . وكما لاشك مصيبون
 وما غلوي انا الا جزء من غلو اولئك الفلاسفة الكرام . هذه الثمرة
 من تلك الشجرة . ولكن حبذا هواء لبنان وبئس المتنشقون .
 حبذا ماء الجبل وبئس الشاربون . لا والله هذا كثير . لا يجب ان
 الوم اللبنانيين ولا ان أوآخذهم بما هم عليه من الجمود والانحطاط
 والاستكانة والضعمة . فالأكليروس وشيوخ القرى راضون عن
 مثل هذا الانحطاط والخلمول ويجب ان يرضى المقلقون بما يرضى
 شيوخ القرى والأكليروس . يجب ان ترضى ونسكت . ولكن
 اذا نحن سكتنا فالهاجرون لا يسكتون . اذا نحن رضينا فالهاجرون
 المقلقون لا يرضون . نعم لا بد ان تشرق علينا شمس العلم والترقي
 من المغرب كما تشرق علينا شمس الله من وراء جبل صنين . لا بد
 ان يشرق على سوريا قر الاصلاح من وراء البحار مثلما يشرق عليها
 قر السماء من وراء جبل الشيخ . لا بد من التقاء الشمسيين واجتماع
 القمرين وقد يتأخر قر المغرب الى اهزيع الاخير من الليل . فاتمه
 الامة مطمئنة اذاً . ولكن اذكروا كلامي . لا بد من ان تعالينه

ذات ليلة من ليالي تموز وهو شهر جليل الذكركر عند اعظم جمهوريتين
في العالم .^(١)

واني لأذكر يوم وقفت امام قومي في اميركا فذكرت قومي
في الوطن وها انا الآن امام نخبة من قومي في الوطن العزيز اذكر
قومي في اميركا فتحلوا لي الموازنة بين الشعبين اذا لم اقل بين
البلادين ولكن الوقت قصير والحبل اقصر . فمتى ياترى يعود
المهاجرون المنورون الى الوطن . وافطنوا انني لا اريد سوى
المنورين واما ما بقي من المهاجرين فسواء على الوطن أعادوا ام لم
يعودوا فهم لا ينفعون . الامة بافرادها لا بجرادها . ولكن حتى
م هذا الانقسام وهذا التشتيت وكيف تصان وتتعزز الوطنية
والمنورون من السوريين ضاربون في اربعة اقطار العالم تأهون في
فيافي النزاع والجدال - فتراهم قائلين بعضهم على بعض في كل
صقع وفي كل قطر وفي كل بلاد . الشعب السوري في المهاجر
جاهل ولكنه ناهض عامل . والشعب السوري في الوطن منور
الى درجة ولكنه متقاعس متغافل . هناك ترى السوريين في
هرج ومرج وشغب ونزاع وجدال وقتال . تراهم ابدأ قائلين
قاعدين ضاربين شاكين . وهنا تراهم الى السكنينة والاستكانة
مخلدين . هناك تضعف الوطنية ويقوى التعصب الديني من عوامل

(١) ليطمئن انبياء اليوم بالآ فان صدق نبوءتي هذه لا يطمئني في ان

انافسهم وقلما يدعي النبوءة من تصدق نبوءاته .

خارجية . وهنا قد ينتج ذلك عن عوامل داخلية . هناك
 نهاميون ووزارزة من الاكليروس عاكهون على جمع المال عاملون
 على اثاره الفتن . وهنا - ولكن قد فاتني ان البحث في شؤون
 ذوي الرئاسة محظور في هذه الجمعية بل في هذه البلاد . هناك
 صحافة عربية نمت في ظل الحرية فوافقها الهواء الى حد ان صارت
 صحتها فيه بلية . وهنا - وايكن الصحافة بنت الزارزة
 والنهامين فكما راعينا خاطرهم يجب ان نزاعي ايضاً خاطر ابنتهم
 هذه العانس الفضاضة الوهنازة . الصحافة السورية في اميركا
 وما ادراك ما هي . سطور تلمع من خلالها الخناجر والحراب
 واعمدة تطفح بالحامض الكبريتيك . واما هنا فعندنا زناويل من
 القش ملونها قطن منقوش وبنجور يحرق في مجامر التدليس حول
 الارائك والعروش . ولكن قد فاتني ان الخوض في امور السياسة
 محظور في هذه الجمعية بل في هذه البلاد . هناك قوم يقدمون
 على غير هداية . ويخبطون خبط العشواء في البداية . وهنا
 كرام يرون البقاء في الخيام . خيراً من الهيام في الظلام والجمود
 خيراً من التطواف خارج الحدود . هناك حرية يرافقها بطر
 وشر وحقاقة . وهنا تهذيب ناقص يتراوح بين المراعاة واللياقة .
 ويسير مستسماً مكتئباً من الخمول الى الذبول . هناك قبل لا
 يتبعه عمل وهنا لا قول ولا عمل . ولعمري هذا الاخير احسن
 من ذلك . هناك ضجة وقعقة وضوضاء . وهنا هدوء وقناعة ورخاء .

هناك صحافيٌ يقارع كاهناً وكاهن يصارم صحافياً وهنا • - كاد
 يطيش السهم ثانية او بالحري كاد يصيب كبد الحقيقة لو لم ترده
 هذه الجمعية الزاهرة بمن التحظير : هنا وهناك وهناك -
 وهل ينطق من في فمه ماء ؟ نعم كدت انسى ما وعدتكم به . ماذا
 تظنون لقيت على شاطئ البحر ؟ اسمكة من ذهب او صدفة
 من الندى المتجمد على الصخور او لؤلؤة صفراء او مرجانة بيضاء
 او بنتاً من بنات الامواج الزرقاء اللاتي يحلم ويهيم بهن الشعراء
 او شيئاً اندر من كل نادر تحت السماء ؟ لا لا • ما لقيت شيئاً من
 هذا • ما لقيت على شاطئ البحر سوى الامواج ثم الامواج
 ثم الامواج • وهذا من مثل كلام المتصوف الذي يختلي بنفسه
 ويقول : قد وجدت روعي قد لقيت ذاتي ولك ان تسأل هل
 كانت روجه قدس الله سره ضائعة ام كان هو محجوب عن نفسه •
 ولكنني اعجز عن الجواب لان الله لم يفتح عليّ في مثل هذه
 الامور • ولهو لا المتصوفين ضروب من الكلام لا نلحظها نحن
 العوام • غير اني اهديك الى القشيري والسهروودي اذا كنت لا
 تخاف ان تضيع في براري شطحاتهم وسرادب اسرارهم • واذا
 اغلق عليك هناك فاليك فلاسفة الالمان الروحيين او براهمة الهند
 القانتين • واما كلامي فكلام شاعر مفتون • لا كلام متصوف
 مغبون • نعم ما لقيت على شاطئ البحر سوى الامواج القائمة
 القاعدة المرغية المزبدة الهاجمة الهائجة • سوى الامواج تلاعب

الرمل فتترك عليه اثر حنين البحر الى ما خرج من بطنه من
 سواحل وسهول وجبال . لقيت هذه الامواج او بالحري لقيت
 فكراً صغيراً في موجة صغيرة منها جاءت تلثم قدمي ضاحكة
 وعادت الى حجر امها راغبة راضية . ففكرت في نفسي اذ ذاك
 وقلت . اليست هذه الامواج من ذات البحر الذي تتلاطم
 امواجه حول جبل طارق ؟ او لا تنقل امواج البحر الواحد من
 مكان الى آخر في مدار الليالي والايام فتسافر الموجة الواحدة الى
 سواحل سوريا كما تسافر بواخر الميساجري ماريتيم . او لا تمتزج
 امواج البحر المتوسط بامواج البحر الاطلنטיكي عند مجتمع
 البحرين . او لا تسافر الامواج من مرفأ نوورك الى جبل طارق
 ومن ثم الى سواحل اسيا الصغرى ؟ اذن - وها قد وصلت الى
 بيت القصيدة - ما الموجة التي لثمت قدمي الا رسول خير من
 بلاد العلماء الى بلاد الانبياء . ما هي الاموجة واحدة صغيرة من
 بحر النور والهدى يقذفها المغرب الى المشرق . ان هي الاموجة
 من امواج العقل والحجى يسوقها الله الى بلد ميت فيحييها بعد
 موتها . ان هي الاموجة من امواج النفس البشرية النبيلة تحملها
 الرياح والاعاصير الى المستضعفين المستذلين من العباد في كل بلاد
 ان هي الاموجة من امواج الحب والحمان يشحذ بها الاصفياء
 الاحرار عزم اولئك المنقادين للهوان المستسلمين للامتهان . ان
 هي الاموجة من الامواج التي تغسل قدمي الهمة الحرية الرافعة

نبراسها في مدينة نويرك العظمى واني لاقول لكم الآن لا بد
ان يرى المستقبل مثل هذا التمثال الجليل الجميل في كل مدينة
كبرى من مدن الشرق الاقرب والاقصى . واذ لم يكن تمثالا
من نحاس اصفر او رخام ثمين . فتمثال من نور في قلوب الوطنيين
وهذه شبه نبوة بيد اني قصير الباع في هذه الصناعة ولكن قد
جاء في الحديث الشاعر جزاء . ان من ستة واربعين جزاء من نبي .
ولعل احدكم يقول قد جاء ايضاً والشعراء يتبعهم الغاؤون وهم في
كل واد يهيمون . نعم قد سمعت هذا الحديث ولكنني لا اسالكم
ان تتبعوني . اذكروا فقط كلامي . ودعوني واحلامي .



الحرية والتهديب^(١)

ونريد أن نمنّ على الذين أستضعفوا في الارض
ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين (سورة القصص ٤)

ايها الوطنيون

انتم المستضعفون في الارض وانتم ان شاء الله الوارثون .
ويشهد على ذلك نير ماضيكم وحرية حاضركم . يشهد على ذلك
ظلام امسكم ونور يومكم . فانتم المفلحون والمحررون بفضل زعماء
الآراء الحرة وبفضل الجسد العثماني الذي سيرهن لاوروبا اليوم
ان الشرق لم يزل منبت المعجزات . ففي الماضي كانت معجزاته
دينية واليوم معجزاته سياسية . بالامس دهشت دول اوروبا
بالمعجزة التي اتتها اليابان واليوم تدهشها المعجزات السياسية
والاجتماعية في دولة بني عثمان . فاوروبا لا تعرف حتى الآن معنى
الثورة السلمية وما رأت بين شعوبها المتباينة عناصرها السياسية
والتضاربة مذهبها الاجتماعية مثلما يسود اليوم في امتنا من
التساهل والمساواة والاخاء^(٢) وهذا هو النور الذي ينشق من
الظلام . هذه وردة الوثام التي تنبت على ضريح الشقاق والحصام

(١) اقيت في حفلة من حفلات الدستور

(٢) واذا ماراني اتقنطون من الال الحاضرة اردهم الى المستقبل

هذي هي الحرية التي تشيد الامة هيكلها في روضة الالفة والسلام .
 جاء في بعض الاسفار ان الاطباء الاقدمين اكتشفوا
 العقاقير القتالة قبل العقاقير الشافية . وكذلك يصح ان يقال في
 حكومات العالم باسرها فالقتالة منها وجدت قبل الشافية . ولا
 فرق بين ان تكون الحكومة ابوية كما في الصين او اميرية كما
 في الهند او استبدادية كدول اشور ومادي وفارس او كحكومة
 الروس ، بالامس فكلها من الادوية القتالة التي يسقيها الحاكم المحكوم
 ليقتل فيه الروح ويتمكن من ارهاب الجسد وتسخيره واستعباده .
 فالظالم مجرم اياً كان . والحكومة الاستبدادية ذاهبة الى البوار
 في كل مكان . ولنا في حكومتنا على هذا اقطع برهان فبالامس
 كانت الامة العثمانية تتقلب على فراش الموت واليوم ترح فرحة
 تحت سماء الحياة وفي ظل الحرية والدستور . لنهني . انفسنا اذا
 لاننا عشنا والحمد لله نرى الظلم مدرجاً بكفنه والاستبداد
 هاوياً الى الجحيم .

بالامس كان خطيبكم يتسلم المنبر فيجتمجم الكلام ويوريه
 ويلغز ويرمز . ويعقد مقاله ويلويه . لتخفي على جواسيس الحكومة
 معانيه . واليوم نراه كما لو كان في باريس او في نيويورك يصدع بالحق
 ويجاهر مصرحاً بآرائه ومبادئه . والفضل في ذلك عائد الى زعماء
 النهضة الاصلاحية النظريين . والى زعمائها العلميين . والى الرئيس
 الاكبر الذي انتهت اليه مطالب هؤلاء العثمانيين . بل الفضل عائد

الى كل من حرك قلما لبث روح الحرية والدستور . والى جلاله
السلطان الذي كلل النهضة بالبور فسان الدولة من الخطوب والمحن
وخلص الامة من الهزاهز والفتن . فالامة التي كانت امس اسيرة
ظلمه اصبحت اليوم اسيرة فضله . وقد يكون الآسر اكبر من
الاسير ولكن العاتق ياسادتي اكبر من الاثنين فالسلام اليوم على
عبد الحميد . والسلام على عهده الجديد . سلام على عصر الحرية
المجيد .^(١)

وجدير بنا بعد هذا التشبيب . الذي لا بد منه للخطيب .
البحث في ماهية الحرية واصولها باختصار يوجبه الوقت والمقام .
فالحرية اليوم كلمة تملأ افواه القوم . الحرية جمال يزدهي في اعمدة
الصحافة واندية الامة . الحرية مجد انسى التجار اشغالهم . والاتقياء
فروضهم وانفالهم . الحرية الهمة هجرت الامة معابدها لتعبدها .
كل ذلك جائر . كل ذلك حسن ان لم يكن مفيداً . ولكنني في
كل ما قرأته في الجرائد لمن كتبوا وخطبوا ما اطلعت على كلام
في الموضوع حري بالنظر والاعتبار . وقد يكون فاتي في عزلي
كثيراً مما كتب وفات الشعب في ابتهاجه وهوسه اكثر من ذلك .

(١) وذنب صغير بالنسبة الى ذنوب الشعراء في هذا المقام . ثلاث
تسليات يغفرها الله واكن الثلاث مية قصيدة . . . سبحان من لا تخدعه
الحوادث سبحان العالم بذات الصدور وبجزايا الدستور

لان المعقولات في مثل هذه الايام تلتفت انظار الناس والبحث
الفلسفي في الموضوع لا يروق الشعب ولا يلائم الزينة في المدينة
على انني دعيت الى الخطابة في هذه الحفلة الشائقة فينبغي لي ان
اقول الكلمة التي يوجبها العلم ويقتضيها الضمير ويؤيدها الاختبار
ولكم ان تنبذوها بعد ان تسمعوها او تردعوها فتستثمروها .

كل انقلاب في الحكومات لا يسبقه انقلاب في الافكار
والآراء لا يرجى منه كبر فائدة . فالحرية السياسية جميلة واما
وحدها فمنافعها قليلة ومن الواجب ان يتحرر عقل الامة وضميرها
ليتعرز شأنها وشأن حكومتها . واعلموا ان ثورة روحية في بلاد
الافرنج هي اصل هذه الحرية السياسية التي نتمتع بها اليوم
فرحين مبتهجين . يقال ان للجند يداً في هذه النهضة الاصلاحية
ولا ريب عندي في ذلك . ولكن الجند في الحكومات
الاستبدادية اذا امتهنت حقوقه وحبس زمناً معاشه يقيم السيف
في امره حجة قاطعة . وكثيراً ما حدث من مثل هذا الحادث في
الحكومات الاستبدادية في سالف الزمان . واما الان فنرى ان
الجند العثماني ينصر النهضة الفكرية الاصلاحية ويشق تمام الثقة
بمواعيد زعمائها . والفضل في تغلب الفكر على القوة والعقل على
السيف حتى في الجند عائد الى شي جميل في مدنيتنا ينتشر في
العالم انتشاراً سريعاً . وهذا الشيء الجميل يتجسد احياناً في دعاة
الاصلاح الصادقين وغالباً في الفلاسفة والشعراء الحقيقيين . فالشورى

على وجهها البسيط قديمة في العالم . وطريقها من المشرق الى المغرب يكاد يختفي في ظلمة التاريخ . واما من المغرب الى المشرق فسلكها واضح وآثارها جليلة . فمن المصلحين العثمانيين الى المصلحين الروسيين مرحلة قصيرة . وتكاد اسباب مجلس المبعوثين تتصل باسباب مجلس الدوما . وفي الدوما تتجلى لنا ارواح باكونين وتورغانيف وتولتسوي وغوركي . وهؤلاء من فولتير وروسو وديدارو وهوغو . وروسو وفولتير وهوغو مديونون لكالفين وجون نكس ولوثيروس بكثير من الحرية التي تنبعث اشعتها من اقوالهم . فالثورة الروسية اذاً هي ابنة الثورة الافرنسية وكنتم على ما اظن تعلمون ذلك . والثورة الافرنسية . وهذا ما لا اظنكم تعلمون . هي احدى نتائج الثورة الروحية التي اطلقت ضمير الانسان من قيود الخرافة السوداء . وعقله من قيود السلطة الصماء . وقلبه من قيود الطاعة العمياء . فتدبروا هذا واعلموا ان الحرية الروحية هي رسول الحرية السياسية . واذا جاءت هذه قبل تلك يعد مجيئها نقصاً لا بد ان نحاسبنا عليه الايام .^(١)

ورب قائل يقول وما معنى الحرية الروحية . فقبل ان اجيب على هذا السؤال اوجه اتيكم سؤالاً آخر . أتظنون ان كل من

(١) وما كنت اظن انها تسرع باحساب هذا الاسراع .

عاش في ظل الدستور صار حرّاً . أظنون ان كل من تمتع بحقوقه المدنية اصبح حرّاً . اتحسبون الفقراء والعمال في الجمهوريات من الاحرار . اتقوم الحرية بهذا الوهم الذي يدعونه في الحكومات الدستورية حق الاقتراع . اتعجبون اذا قلت لكم ان نصف سكان الولايات المتحدة لا يزالون مكبلين بسلاسل العبودية . فما الفائدة للخادم من الحرية التي تتوقف على ارادة سيده الخبيثة الجائرة . ما الفائدة من الحرية السياسية التي يكفلها له القانون اذا كان القانون في قبضة الاغنياء . امثل هذا يعد حرّاً وهو لا يستطيع ان يبدي رأياً مخالفاً رأي سيده . ايعد حرّاً من لا يملك نفسه . من لا رأي ولا روح له . ايجسب حرّاً من كان وجدانه مقيداً بوجدان من يتوقف عليه معاشه . فالتسكسك في الولايات المتحدة . اي بذل ماء الوجه امام ارباب المال هو مشتق من التسكسك في الشرق . اي تعفير الوجه امام ارباب السلطة والسيادة . والمتسكسك ياسادتي وان ملاً ماضغيه فخراً بالحرية والاستقلال والمساواة فما هو الا عند تُكَلَّة . لا رأي ولا نفس له .

الحرية الروحية اذا هي ان يكون الفرد مالكاً نفسه اي مطلقاً من القيود التي تضغط على روحه وعقله ان كانت هذه القيود عائلية او اجتماعية او دينية . سياسية . الحرية الروحية هي ان تكون روح كل امرئ بيده ونصرفه لا محجوزة ولا

موقوفة ولا مبيعة ولا رهونة . وطالب هذه الحرية يتدرج فيها من بيته الى دائرة اشغاله ومنهما الى معبده وحكومته . فينعتق اولاً من الواجب الكاذب الذي يفسد الحب في الاسرة ومن المصادقة التي تدعى لطفاً وصداقة ومن الخرافات التي تشوه وجه الدين . ومن التقاليد التي تفسد الحكومة . ان الحرية السياسية اذاً هي فرع من الحرية الجوهرية الاصلية الروحية او هي نتيجة من نتائجها . وهذه الحرية يحدّها ويقيدّها الناموس من جهة والتهديب من الجهة الاخرى . فبدون الناموس يستبد الحاكم ويوغل في الطغيان . وبدون التهديب يستبد الشعب ويمعن في العصيان . بدون الناموس يسود الظلم في الحكومة . وبدون التهديب تسود الفوضى في الامة . فالناموس القويم الحي والتهديب التميم الحي انما هما حصنا الحرية المنيعان . واما الناموس فتمثله الحكومة في الدستور ويمثله الدين في الايمان وتمثله الانسانية في الضمير . فالضمير الحي والايمان الحي والدستور الحي انما هي الدعائم الثلاث التي تقوم عليها الحرية الحقيقية المعنوية الجوهرية . الحرية الثالوثية التي هي واحدة اي الحرية الروحية والحرية الادبية والحرية المدنية . وان كان المرء حراً سياسياً ومقيداً دينياً وادبياً فخريته ناقصة . والحرية الجوهرية الروحية الكاملة لا تسود ولا تنتشر في الامم الا بواسطة العلم الصحيح والتهديب الصحيح فعلياً اذن ان ننادي باصلاح المدارس بعد ان فتح لنا الباب

في اصلاح الحكومة . فان اصلحنا الحكومة وظل التعليم تحت سيطرة من يقتلون في الناشئة العثمانية عزة النفس . وروح الاستقلال وعاطفة حب الوطن . ويعطونهم بدلاً من ذلك قليلاً من العلم الذي قلما يفيد نعود الى الحال التي كنا فيها وتسمي حريتنا كجواد الامبراطور الروماني كاليغولا ^(١) ودستورنا كطياسان ابن حرب او كجبة ديوجن ^(٢) علينا اذاً ان نبث الروح الجديدة في مدارسنا علينا ان نشيد لحريتنا حصناً من التهذيب كما شيدت لها الحكومة حصناً من الدستور . علينا بالجهاد والثبات . بالتيقظ والتحذر تحذروا ايها العثمانيون وتنبهوا .

تحذروا من انقلاب الاحوال وتقلب الرجال فان للوزارة في الدولة مقاصد تخفى على ممثلي الامة وعمال الحكومة تحذروا من رجعات الظلم . تنبهوا الى عودات الاستبداد . ان في السياسة من الاحابيل والاشراك ما لا يعرفها الا من اشرف في السياسة مراراً على الهلاك . احذروا من كان في عهد الظلم حراً فاصبح اليوم مقيداً . اذ بدل الجاسوسية القديمة قد يتألف اليوم من حزب التقهقر جاسوسية جديدة .

احذروا حيل المشعوذين والممخرقين كحذر كم دسائس المعزولين والساقطين . ولا تغضوا الطرف منهم قائلين ان لسهم درياقاً

(١) حصان قين ان الامة بطور منتهى لقباً وكان يعبد.

(٢) طياسان بن حرب . مثل جبة ديوجين . كان كثير الفتوق والرقع

بالدستور . لا تأمنوا السم باصفهان . اذا كان درياقه بنجراسان .
احذروا الخونة والمرائين الذين ينادون معكم اليوم « فلتحي
الحرية » وهم في قلوبهم يلعنونها .

احذروا من المأمورين من يبتهج ويفرح معكم بالدستور وكان
الظلم من طبعه والاستبداد وراثته فيه . فان العوسج لا ينبت
تيناً . والصخر لا يستحيل ماءً معيناً .

احذروا من اتخذ السياسة حرفة والسيادة باباً للارتراق لان
المعدة والاهواء والمطامع تنسيهم الشعب والدستور والحرية .

احذروا المصلحين الكاذبين الذين يتزلفون من الشعب اليوم
كما كانوا امس يتزلفون من السلطان ووزرائه لان طالب الوظيفة
واحد ان احرق بخوره امام الباشاوات او امام الجماعات .

تحذروا من جهل الشعب العاتي كما كنتم تتحذرون البارح
من ظلم الحكومة العاتية . فالتاريخ شاهد على ما ارتكبه الشعب
باسم الحرية من المظالم والفظائع . احذروا في انتخاب المبعوثين
نفوذ رجال الدين . فالعضو الذي ينتخبونه يوثر في المابين مصلحتهم
على مصلحة الامة .

احذروا ايضاً نفوذ الاغنياء الذين لا يهمهم من الحرية
والدستور سوى ارتفاع الاسعار في (البورص) وهبوطها . اذا
شبع الزنجي بال على التمر .

احذروا من ينتمي اليكم اليوم ممن يأكلون اموال الناس

بالباطل ويصدون عن الحق . اولئك الذين يكتزون الذهب
والفضة ولا ينفقون منها في سبيل الامة والوطن والخير العام .
وبكلمة اعم احذروا الحرية التي لا ينيرها التهذيب والتهذيب
الذي لا تنيره الحرية .



الثورة الادبية^(١)

سادتي وسيداتي

قبل ان ابدأ بالكلام اطمئنكم أوكد لكم انني لا اكلمكم هذه الليلة بالرموز والالغاز . بل في نيتي ان اجرد الاشياء من زيناتها واسميتها باسمائها . فان ذكرت العقاب مثلاً فلا تظنوني اشير الى شيء خفي تحته او فوقه او وراءه او فيه . بل اريد العقاب بعينه . وان قلت هبت الشرقية . فلا تقولوا ما اجل هذه الصور الخيالية . فاني اقصد النار الحقيقية تلك التي لو مرَّ العقاب فوقها لوقع فيها مشوياً . قد حان لنا ان ندعو المعول معولاً . على حد قول اخواننا الامير كيين . وبناءً على ذلك سنبقى على الارض هذه الليلة . بعيدين عن القمر والجوزاء وعن تبرقش الشعراء .

لما وقفت امامكم في السنة الماضية شعرت بوجودي معكم في غور الحياة بل في اردن الموت . واما الآن فاراني والحمد لله اخاطبكم وانتم في سهول الصحة تستنشقون هواء الحرية . فمن اردن الموت الى سهول الحياة وحقول الحرية - انها خطوة خطيرة . ولكنها صغيرة . هي خطوة الى الامام ولكنها لا تغني عن

(١) القيت في حفلة جمعية تهذيب الشبيبة السورية في المدرسة الكلية

رحلتنا الطويلة شيئاً من الاقدام . فانتا . اذا حوّلنا وجهنا الى
مشرق الشمس . زى الجبال قائمة في طريقنا . لا لتعرضنا في
سيرنا . بل لتشحد مناّ الهمة وتوقظ فينا النشاط .

وكلما صعّدنا في جبل نشاهد فوقنا روح ما تجسد من الامال
وهي تدعونا الى ما فوقها . من الجبال . وان الامة التي تستيقظ
من سباتها وتنفض عنها غبار فتور الاجيال ينبغي لها ان تواصل
السير بالسرى والا تقهقرت فسقطت ثانية في الوهدة التي قامت
منها . ولا يخفى عليكم ان الطريق وعرة . والزاد قليل . والنفس
مضناة من اقامتها طويلا في الغور . والاحمال ثقيلة . والادلا .
كثيرون . ولكننا سنتوفق ان شاء الله في سيرنا على رغم هذه
الصعوبات والعقبات اذا اتخذنا شمس العلم دليلنا . والآداب
والفنون زادنا .

ان الشمس المشرقة علينا من المغرب اليوم هي والحق يقال
شمسنا . هي شمس آدابنا . هي شمس ادياننا . هي شمس
مجدنا الغابر . وانكم اذا نظرتم الى خارطة العالم . ترون ان من البلاد
ثلاثاً آخذة منه مركز القلب . وهذه البلاد هي سوريا وفلسطين .
وجزيرة العرب . وما بين النهرين . هذه البلاد ووطننا . هذه
البلاد قلب العالم . وفي هذا القلب ظهرت الانبياء . وفيه نشأت
الاديان . ومن هذا القلب اشرفت على اوروبا في الاجيال الوسطى
شمس العلم والفلسفة والآداب . فانارت ظلمات الاوروبيين

وخرجت بهم من مهامه الجهل والتوحش الى واحات الرقي
والعمران . اجل ان وطننا لقلب العالم ولكن اوروبا رأسه . وان
كان القلب منشأً اخيال والنبوة فالرأس منشأ العلوم والفنون على
ان النور المنبثق من الرأس فقط هو كالنور الاصطناعي الذي
يضيئون به المراسح في اوروبا . هو نور بارد جامد خاسي . واذا لم
يشارك مع نور القلب وحرارته فلا خير فيه للانسان مهما عظمت
نتائجها في دوائر العمران . اما الفنون فان لم يكن الضمير أسها
والاخلاص لبها ونفع البشر غايتها الاولى فهي أفيون لا فنون .
فهي تخدر الحواس وتذهب بشي من الهموم ولكنها تقتل النفس
وتفسد الحياة .

ان سكان هذه البلاد التي هي قلب العالم لشبيهون بشجرة
ذكرها النبي . شجرة مباركة لا غربية ولا شرقية . نخز . اليوم
واقفون بين مدينتين متناقضتين متعاديتين . مدينة جديدة
ومدينة قديمة . مدينة اوروبية ترفع اعلامها في البلاد كلها .
ومدينة شرقية لم يزل لها المقام الرفيع بين فئة راقية من نخبة
الادباء والفلاسفة في اوروبا . اذا كان هؤلاء الاوروبيون يجدون
اذا في مدينتنا ما لا يجب تركه . ما لا يجوز اضعه لحلاله فكم بالحري
نحن . ولي كلام طويل في هاتين المدينتين اقول الوجيز منه الآن .
لست بجاهل ما في مدينة اليوم لمن كثر ماله فقط من دواعي
الراحة في المعيشة البيتية المادية والسهولة في الاسفار والمواصلات .

ولا اظنكم تجهلون ما في التعادي والتكالب في سبيل هذه الاشياء .
من الشقاء ايضاً والبلاء . فان المدنية التي يدعى التكالب فيها
نشاطاً . والخداع براءة . والقوة حقاً . هي عندي شر المدنيات .
وهذه مدنية اوروبا اليوم . . مدنية كهرباء هي وبخار . مدنية تجارة
وكسب واستغرار . مدنية حروب وفتوحات واستعمار . ليس
فيها للضمير والذمة اثر من الاثار . مدنية جذورها حب الذات
والاستئثار . وثمارها اليأس والانتحار . لا تقولوا بالغت فان
كلامي من الاختبار . لا من المجالات والاسفار . واما مدنية
الشرق فليست بمنكر انها مدنية فتور وجود واستسلام . مدنية
اصولها القضاء والقدر وليها محض اوهام . ولكن فيها من جميل
العادات والتقاليد . من جميل العواطف والشعور . من عزّة
النفس وكرم الاخلاق . من الاعتدال في العيش والبساطة . ما
تفتقر اليه مدنية اوروبا . وهذه الخلال الشريفة تبعث الحرارة في
الحقيقة الباردة القاسية فتسمي الحياة خفيفة الاحمال مرضية
الآمال .

فضلاً عن انه لم يزل في هذه المدنية القديمة شي من الضمير
الحي والتجرد في الولاء ، ما يزيد انفس الشرقية جمالاً . والضمير
الحي ايها السادة هو ملح العلوم والفتون والاداب وبهذه كلها
تغذى المدنية الحقّة .

نحن اليوم واقفون بين هاتين المدنيتين - بين مدنية غازية

منتصرة واخرى مدبرة . فعلينا اذاً ان لا نخضع على الاطلاق لهذا الفاتح القوي . وان نتمسك بما في مدنيتنا من الخير الروحي . ولا ينجينا من استبداد هذه المدنية الفاتحة القاهرة ويحفظ لنا حسنات تلك المدبرة سوى الاداب . لا اريد بالاداب الكتب فقط بل اريد منها اداب النفس اولاً والاخلاق . ان الدين وهو اب مدنية الشرق يرفض بتاتاً مدنية الغرب . وان العلم المادي وهو اله مدنية الغرب يرفض بتاتاً مدنية الشرق . فالدين والعلم في هذا الموقف متغرضان كل لقومه ولا ينفعنا الواحد منهما دون الاخر . واني لا اجد في كل قوى الفكر والنفس وثمارها اصلح وانجع من الاداب تجمع بين الاثنين فينشأ عن ذلك مدنية جديدة قواها الصنائع والفنون وشعارها الاخاء العام . واعلموا ان الفنون السامية الجميلة هي التي تتغذى بالعلم والدين معاً . والامة التي تجعل مثل هذه الفنون اساس حياتها الاجتماعية تكون ولا غرو مجد المستقبل وأم الامم . على شطوط البحرين وفي اودية الرافدين احب ان اشاهد مثل هذه المدنية الجامعة بين محاسن المدنيتين . احب ان ارى في قلب العالم جمال روح العالم وكما لها . احب ان ارى في بلاد الشام وبلاد العرب ثمار الانبياء وثمار العلماء على شجرة واحدة . احب ان تررع بساتين هذه الارض المقدسة من تلك الشجرة المباركة . شجرة لا غربية ولا شرقية . واحب ان ارى الادباء والشعراء يعيدون عن السياسة

واو حالها منصرفين الى حراثة هذه البساتين الجميلة .
ايها السادة - لا تظنوا ان الانقلاب السياسي يجدي نفعاً
ان لم يتبعه انقلاب ادبي . لا تظنوا ان في الحكومة الدستورية
دواء شافياً لكل امراضنا . لا تظنوا ان الدستور وحده يخلص
الامة من الاخطار المحدقة بها النامية في قلبها . وان الصحافة
الحرّة تقف دائماً من اجل الامة في وجه المشعوذين والمضللين
والمفسدين . وهل الدستور والصحافة الحرّة رقيتان من رقيات
السحرة حتى اذا قلنا مثلاً شولم صحافة اصرينا شعباً حراً ؟ شولم
دستور اصرينا امة راقية ؟ لا يا اخواني لا . اذا طلبتم الحرية
فاطلبوا المعنوي منها قبل الحرفي . الجوهرى قبل السياسي .
اطلبوا الحرية الروحية التي تحصنها الاداب قبل الحرية المدنية
التي تتاجر بها الاحزاب . وان خفي عليكم الفرق بين الاثنتين
فاذكروا ان حرية الجسد لا تجدي المرء نفعاً اذا كانت النفس مقيدة .
وان حرية الفكر والقول لا تعني فتية اذا ظلت الروح اسيرة
ما اعتاده الجسد من الراحة والترف والرخاء . او من الذلة وتعفير
الوجه والعياء .

اخواني - ان الفرق بين الحرية الادبية الروحية والحرية
المدنية المادية هو كالفرق بين حرية السياسي في مراوغاته وحرية
البدوي في خيمته او الرجل الصالح الجريء في معاملاته . اجل
ان الحرية الحقيقية هي التي تنشأ في النفس لا التي يمنحها الملك

الرعية . فان هذه ترعزها الالهواء . ويتاجر بها الزعماء . وتقتلها رجعات التقهر الشعواء . وتلك كثر من كنوز النفس الخالدة . والذين لا يناضلون عن مثل هذه الحرية ولا يفادون من اجلها بشيء . مما الفوه من رخاء العيش او بشيء مما نالوه من المال او الرفعة والوجاهة فما ضرهم لو دعوا كلابهم احراراً وذكروا في صنواتهم عبد الحميد ؟ ان الذين يتنازلون عن حريتهم ويتاجرون بها كما لو كانت ثوباً من الخام او سهماً من اسهم البورص ان هم الا قبور متحركة . اذا ما الجسد الا كالقبر لنفس باعت حريتها . ولكنني خرجت عن الموضوع .

قلت ان الاداب التي تجمع بين العلم والدين تكون قوام المدنية الجديدة التي يقرن فيها بين مدنية المغرب المادية ومدنية المشرق الروحية . ولكن آدابنا لم تزل تحت سيطرة المتدينين والمتنطعين وانفسنا لم تزل في ربة رجال الدين . واذا كنا لانتجرد من هذا الاستبداد الديني او بالحري السفسطي . كما تجردنا من الاستبداد السياسي . تظل ادابنا مبتذلة جامدة خاسئة ونعود بعد حين الى ما كنا فيه من الفتور والخمول والانحطاط .

خذوني بحلمكم فاقص عليكم بوجيز الكلام قصة الكهان . ونشوء العبادة في قلب الانسان . لنعد الى الاكواخ اذا فسحكي هناك شيئاً من حكاية اجدادنا الاولين . ان من المعقولات التي لا تنفيها الالهيات او الالهيات التي لا تنفيها المعقولات . حيوانية

الانسان . فان اول دعوة لبها دعوة البطن والشهوات . وماذا يهمننا . وقد علمنا هذا . فيما اذا كان يمشي على الاربع في تلك الايام او على الاثنين . ان في العالم حتى اليوم كثيراً من الحيوانات التي لا تمشي على الاربع . هذا الحيوان الناطق اذا لم يكن يفهم في بادىء امره الا حديث معدته وحديث كبده . فكان لا يحسن غير الصيد والحرب والاكل والسفاح وبعد فترة من الزمن مقدارها الفان قرناً او الفان عاماً - لا فرق عندي - بدأ يسمع صوتاً آخر من فوق المعدة والكبد . بدأ يشعر بدعوة القلب فصار يعطف قليلاً على اولاده ان لم نقل ايضاً على شريكته بل جاريته بل بعلته . وعلى هذه الحال عاش سنين - وللعلماء ان يجمعوا الالوف منها فوق الالوف فان عدها لا يستحق تعب الفكر - عاش سنين وهو لا يرى ولا يسمع سوى ما زينته له الغريزة وحدثته عنه المعدة . او لا ترون ان بعض الشعوب اليوم فضلاً عن القبائل المتوحشة . لم تزل في هاته الحالة المنحطة من الحياة . فان القوى المدركة لم تظهر فيهم بعد . وفي هذه الفترة الطويلة الامد نشأت على ما اظن العبادات والمعبودات التي كانت في بادىء امرها مادية محضة . لان هذا الحيوان الناطق بل هذا الصياد الغازي لم يَرَ في الاشياء الا ما ظهر منها . لم يَرَ في الشمس الا النور . لم يَرَ في الشجرة الا ثمارها واغصانها وقشورها . لم يَرَ في النار سوى لهيبها ودخانها ورمادها . لم يَرَ في الحيوانات سوى

ما بدا منها وما ظهر من حركاتها . في تلك الايام السعيدة كان كل حيوان ناطق يعبد طاغوته ويجب مرمورته على طريقته الخاصة بمقتضى شعوره وهواه عملاً بداعي القلب والغريزة . وبعد ان مضت عليه احقاب وهو في هذا الغور من الحب والعبادة ارتقى قليلاً الى ما فوق السهول وبدأ يشغل المخيلة منه حتى صار يرى في الاشياء شيئاً تحت القشور وتحت الرماد . وبما انه لم يدرك اسرارها راح يسلي نفسه بالاشعار ويعلاها بالخيالات . وبمقتضى هذا طفق كل انسان يمثل الخالق في الشكل الذي انطبع في قلبه اكثر من سواه . ولا حاجة لتعداد هذه المعبودات كلها . فلو جئت اعدد منها . لا ان اعددتها . لاقتضى ذلك من الوقت ما لا يسمح به المقام . ولكن اذا ذكرنا منه الجمل والشمس فقط نكون قد جمعنا اولها بآخرها . اوطاها باعلاها . اصغرها باكبرها . وحالة الفرد تجاه معبوده في تلك الايام هي هي اليوم في شعوب الارض كلها ولم يرتق في الامم سوى الافراد .

وكذلك في اجدادنا اصحاب الاكواخ . لما ظهر في الجماعات اناس ارتقى نوعاً من اخوانهم وبدا لهم ان الانسان يرتاح الى كل غريب عجيب - والزنجي والباريضي اليوم سواء من هذا القبيل - لما علم هؤلاء الدهاة ما للخيال والوهم من السطوة على النفس والقلوب . قاموا يؤسسون من هذه العبادات ديانات رسمية . فبنوا المعابد . وحاكوا من اوهام الناس طقوساً وطرائق .

واقاموا انفسهم رؤساء في الهيكل وبدأوا يتكهنون ويمثلون الله - استغفر الله - يمثلون الطاغوت على الارض . وهذا في رأي اول ما كان من امر الوثنية والكهان . واذكروا ان الوثنية لا تزال سائدة في بلادنا والكهان يتعاطون التجارة اليوم في دكانهم القديم . وقد اوضحت كيف كان كل امرئ يعبد طاغوته على هوى قلبه قبل ان يولد الكاهن . ولكن هذا المريرت - المفضة وحشية ولكنها في محلها - اول من ألف من هذه العبادات ديانة رسمية فشيدت من اجلها الهياكل . ونحتت الاصنام . وقدمت الذبائح والقرايين . وتسربت الى بيت صاحبنا المتكهن العطايا والاموال . وذلك قبل ان يظهر في الارض الانبياء الذين هم اعداء الملوك والكهان . فاذكروا هذا ولا تنسوه . ان الانبياء لاعداء الظلم في الملك . واعداء الرجاسة في الهيكل . واعداء الفساد في الجماعات .

واما الكهان ياسادتي فهم اول من عاثوا في الارض فساداً هم اول من قيدوا النفوس البشرية واستعبدوها . هم اول من تاجروا بالخداع والتفريز . هم اول من استولوا على الامراء والملوك وأيدوا سلطانهم بانبياء من السماء كاذبة . والكهان اليوم او رؤساء الاديان كلها هم اعداء الحرية الروحية الادبية . ولا يغرنكم ما ابداهم من الارتياح الى هذه الحرية التي منحنا اياها الدستور . فان العنان لا يزال في ايديهم والارواح لا تزال في ربقتهم . الكهان

هم اعداء الآداب الراقية • اعداء نزعات النفوس السامية الى الكمالات الفكرية • على الكهان وآلهة الكهان امتشق نبي العرب حسامه في الكعبة وصب اشعيا نار غضبه في اورشليم • على الكهان ومذابحهم وتراويقهم واصنامهم ورجاساتهم انقضت صواعق حزقيال في اسرائيل وزمزمتم رعود دانيال في بابل • على تغريرات رجال الدين وخزعبلات العبادات قام ابن عبد الوهاب في نجد • ولوثيروس في وتنبورغ وجون نكس في انكلترا وغيرهم في البلاد كثيرون • فما علينا لو استغفينا عن المتكهنين المدلسين وتفلتنا من ربقتهم واعتصمنا بالله وبدين الله وبانبياء الله • تدبروا كلامي ولا تسيثوا افتهامي • اني احترم العاطفة الدينية التي تكاد تكون فطرية في الانسان ولكني لا اجد في خزعبلات هؤلاء الناس وفي تنطعهم - وقد قيل هلك المتنطعون - ما يساوي ذرة من نفس امرى راقية • ولكن اذا لبس الكاهن او الامام لغايته ثوباً من التغيرير والخداع ولبس المتعبدون ثوباً من الجهل والخرافة فذلك لان الانسان لا يسير في الارض عريان بل ينبغي له ان يستر سوءته ولو بسوءة اسوأ منها وقد قال احد المسلمين : ان من آفات الدين فسق المتكلمين وجهل المتعبدين • ايها السادة المرء يحتاج دائماً الى من يذكره بانه من ابناء اليوم لا من بقايا الامس • يحتاج دائماً الى من يريه الربقة والقيود على روحه • يحتاج دائماً الى من يهمس في اذنه او

يصرخ في وجهه : انك انسان حر . لا آلة في يد هذا او ذلك
يتصرف بها ساعة يشاء . كيف يشاء . فيا ايها الشرقيون . ان تحت
خريف نفسمك الدائم ربيعاً جميلاً اذا كنتم تعقلون . ان تحت رهوكم
موجات عظيماات لو ناهضتم العاصفة ولو مرة في الحياة . فان
مثل هذه النهضات الروحية . مثل هذه الثورات الادبية . وان
كانت عاقبتها اليوم غير مرضية . فهي غداً للنفس منعشة محيية .
مثل هذه النهضات تعود المرء الفكرة . وتروض منه الارادة .
وتكسبه المنعة والاستقلال . ان للماضي اثراً قوياً في العروق .
ان فتور الشرقي وخموله لفي الدم . اذا كان لا يمرن نفسه و ارادته
اذاً على ما يحرك الدم - دم الجسد ودم الروح معاً - يظل ما دام
حياً كطلل من اطلال الزمان . ولا ينهض بالشرقيين من هذا
الغور المظلم سوى الثورة الادبية التي يتبعها انقلاب عظيم في
الاخلاق .

فها اننا قد صرنا امة حرة ذات حكومة دستورية . ولكن
ذلك لا ينافي ما في العائلة وما في الطائفة وما في المدرسة من الجور
والحيف والاستبداد . من العماوة والجهل والفساد . ذلك لا ينافي
ما في اصطلاحاتنا الاجتماعية - واكثرها من فضول هذا التمدن
الافرنجي من الضيم والشقاء ما لا يماثله ظلم في الحكومات المطلقة .
الاترون ان التاجر لا يزال محني الظاهر تحت امواله وصكوكه
وان الصانع لا يزال اسير هذا العبد سيده . والتلميذ في المدرسة

اسير جهل استاذه . والاستاذ اسير استبداد رئيسه . الاترون
ان المصلح السياسي مرهونة حرите لخطه حزبه . والكاتب حرите
عند قرانه او في قبضة رزقه ، والصحافي حرите في جلده واستقلاله
في كيبه ، - لا توأخذوني فقد وعدتكم في البداية بان اسمي المعول
معولا والعقاب عقاباً - الاترون ان المرأة في البيت مقيدة بارادة
زوجها . عادلة كانت او جائزة . وان الاب لا يزال يعتقد ان
اصول التربية في تأييد سلطته . وان المأمور في الحكومة يتألم
من ضغط ذلك الجالس فوق رأسه . والجندي من استئثار ضباطه
والكاهن من ظلم اسقفه . والاسقف من استبداد بطريقه .
والراهب يحترق في نذره ويئن من عنف رئيسه ، والفلاح يتأوه
من جور اميره . بل بصرخ في بعض الاماكن تحت سوطه -
شولم صحافة ؟ صرنا شعباً حرأ . شولم دستور ؟ صرنا امة راقية .
اي اخواني . اسمعوا التقية تهمس في اذن هذا الشيخ -
حافظ على مركزك . اسمعوا الخوف يقول لذلك الصحافي - حافظ
على مصلحتك . اسمعوا الذلة ترشد اخانا الفلاح قائلة - اتق
بطش سيدك . اسمعوا الجبانة تهمس في قلب الراهب - اتق
الفضيحة وحافظ على ثوبك . فالتقية والخوف والذلة والجبانة
هي اعداء حرية الانسان الحقيقية . وان لم يجرر نفسه منها بنفسه
فائة قانون ومائة دستور لا تحرره . واعلموا ان الارادة المستوية
على ارواحنا لا يخلصنا من ظلمها الا ارادة اشد منها .

اني ادعوكم اذاً الى ثورة ادبية • اناشدكم بالحرية التي بعثت
من غور ماضينا حياة جديدة ان تطردوا الخوف والتقية والذلة
والجن من قلوبكم وبالاخص عند ما تشعررون بيد الظلم عليكم
وترون الحرية الادبية مقيدة امامكم • ايه اخواني • ارفعوا اعلام
الاداب في البلاد • شيدوا صروح التهذيب • اسسوا معاهد
للفنون • فان الاداب والتهذيب والفنون هي القوى الادبية
الروحية التي يتآلف فيها العلم والدين • ويقرن فيها بين بديهيات
الانبياء • ومعقولات العلماء • وتمتج فيها روح الحقيقة وروح
الجمال • وتنبتق منها اشعة السلم والحب والاخاء • اجل • هي
القوى التي يتوقف عليها تحرير الانسان • وتحرير الشعوب والامم
لنعزز الاداب اذاً والفنون • لنؤيد بالقول والعمل التعاليم
السامية • لنصر الاراء الحرة السديدة • ومتى رأينا ان الحزب
الذي ننتمي اليه • او الطائفة التي نحن منها • والجريدة التي
نكتب فيها • تحاول تقييد افكارنا او الضغط على عقولنا او
المتاجرة بارواحنا • فعلينا ان نخرج منها سريعاً وننفض عن نعلنا
غبارها • ان شرف المرء في حرية عقله ونفسه • وشرف الاحزاب
في حرية رجالها • وشرف الطوائف في حرية ابنائها •

اخواني - ما الناس الا امة واحدة • وستجمعهم في المستقبل
ان شاء الله جامعة واحدة هي جامعة الاداب والفنون • ودين
واحد شامل قوامه الابوية الالهية والاخاء العام •

المدينة العظمى^(١)

سادتي وسيداتي

قص ارستو الشاعر اليوناني قصة عرافة تتراوى للناس اثناء الربيع والصيف في صورة ملك سماوي واثناء الخريف والشتاء في شكل حية رائعة هائلة . وكانت هذه الساحرة تغمر بفضلها والائتها اولئك الذين احسنوا اليها وعاملوها بالمعروف في فصلي الشتاء والخريف . واما الذين اساءوا معاملتها وحاولوا قتلها وهي في تلك الصورة المخيفة فكانت تحرمهم هذه النعم والبركات . وقد شبت الحرية بهذه العرافة العجباء التي تبدو تارة كالملك وطوراً كالحية الرقطاء . فالحرية في بادى امرها تتخذ هذا الشكل المزدوج الغريب الذي يتخوف منه بعض الناس ويغالي في مدحه الاخرون . ان في الامم التي الفت العبودية تظهر الحرية اولاً كالحية فتتحول رويداً رويداً الى ملك سماوي . وما من منكر ان حرية العثمانيين لم تزل في فصل الشتاء . حريتنا لم تزل كعرافة ارستو في شكلها الهائل المخيف . ويجب مع ذلك ان نصبر عليها ونحسن استقبالها حتى اذا استتحات ملكاً قريباً لا نحرّم فضلها

(١) القيت في احفلة التي اقامتها جمعية طلبة العلم العثمانيين في ١ ايار

سنة ١٩٠٩ في المسرح الجديد ببيروت

والاها .

سادتي . ان الحرية مهبها قيل فيها هي ضالة الانسان المنشودة .
هي غايته القصى في الحياة . هي قوام الانفس والعقول . وغذاء
الفنون والعلوم . واس كل مظاهر الرقي وال عمران . واود لو
دعيت المدينة العظمى التي هي موضوعي الليله مدينة الحرية
واطلقت على شوارعها اسما . رسل الحرية وابطالها في كل زمان
ومكان .

من الحقائق التي لا ريب فيها ان الانسان مهبها ارتقى في سلم
الحياة يظا في مكان يرى منه من تقدمه الى العلاء . ومهبها انحط
المرء وتقهقر لا يصل الى القعر الذي لا يكشف على احد دونه .
فالسلم والمهاوية لا نهاية لهما في الحياة . لان الدرجة الاولى
منهما في المهد والدرجة الاخيرة في القبر . اينما كان المرء اذا يرى
كثيرين من الناس فوقه وكثيرين تحته . وكلما ارتقى درجة في
معارض الفوز والفلاح يسمع اصواتاً بعيدة تدعوه الى ما هو
فوقها . وهذه من حقائق الحياة التي فيها لجميع الناس كثير من
التنشيط والتعزية عايها اذا ان لا نكون عبيداً لمن هم فوقنا
والا نستعبد من هم دوننا . علينا الا نتصاغر امام الكبار والا
نتكابر امام الصغار .

وكما في الناس فكذلك في المدن . فلا يحق للوندرا مثلاً
ان تصغر خدها للقاهرة ولا للقاهرة ان تشمخ انفها على بيروت

لان حنات المدينة العظمى قد تكثر في هذه وتقل في تلك . قد تكبر في المدينة الصغيرة وتضغر في الكبيرة . والمدينة هذه التي صورها العقل بريشة الخيال ما هي من مدن هذا الزمان ولا من مدن الماضي . ليس في نيتي ان اكلّمكم لا عن نينوي او بابل ولا عن نيويورك او باريس فان باريس من أمّات المدن العظيمة ولكنها لا تستحق في نظري صيغة التفضيل لان هناك مدينة اعظم منها مجدآ . واسمى منها شأنآ . وابتعد منها جمالآ . وارقى منها فضلاً وعلماً .

ومن يتجاسر ان يتكهن في هذه الايام . من يدري ما في المستقبل اشعوب آسيا الصغرى . فقد ترهو المدينة العظمى فوق اطلال بابل . قد يشيدها الزمان على ضريح نينوي . قد ترتفع صروحها واعلامها واوراجها وقبابها تحت هذه السماء الجميلة . على هذه الشواطئ التاريخية المقدسة . امام هذه الامواج التي شاهدت جنازة مجد آسيا . وستشاهد ان شاء الله موكب بعثه .

وباي تمتاز المدينة العظمى عن سائر المدن ؟

ابراسيها البحرية . ابمحطات السكك الحديدية . ابمركباتها الكهربائية . اباسلاكها البرقية . ابانبائها اللاسلكية . ابصورها الشاهقة . ابصروحها الفخيمة . ابانفاقها وجسورها وملاهيها ؟ باي تفاخر المدينة العظمى سائر المدن ؟ ابشوارعها الواسعة النظيفة . ابساحاتها الكبيرة الجميلة . ابمخازنها الحاوية ما ندر وعز من

مصنوعات الطبيعة والانسان . ايجادها العمومية . اجتمعاتها
 المجانية . ابحاثها العلمية . ابحاثها الادبية والتاريخية .
 ابحاثها واورصاتها واغنيائها . ابكثرة سكانها . ابتعدادها ؟
 لا ياسادتي .

المدينة العظمى تمتاز عن سائر المدن بنوابغها . بشعرائها
 وعلمائها وارباب الفنون والصنائع فيها . المدينة العظمى هي التي
 يمكنها ان تفاخر سائر المدن لا بكثرة سكانها بل بكثرة الاصحاء
 فيها . اذ ما هو الخير في مدينة تسعون في المئة من ابنائها مرضى ؟
 المدينة العظمى اذ هي التي يخلو هواها من جرائم الامراض
 المعدية وتشرق شمسها على عقول سليمة في اجسام سليمة . المدينة
 العظمى هي التي تكرم ابطالها ونوابغها لا باقامة التماثيل ونصب
 الانصاب فقط بل بالاعتناء بهم وبالعامل بتعاليمهم . هي المدينة
 التي يقرن فيها بين البساطة والجمال في ابنيتها وفي ازيائها وفي
 فنونها . وبين الرحمة والعدل في احكام قضاتها . وبين العلم والدين
 في تعاليم علمائها . هي التي يحترم المرء فيها جسده وروحه ويعتني
 على السواء بنظافة الاثنين . هي التي ينبذ رجالها ونساءها
 الشرائع التي يسنها الخائنون لتعزيم شوئون افراد من الناس ولا
 فرق ان كان الافراد من الاغنياء والامراء او السلاطين . هي
 التي لا يوجد فيها ارقاء ولا تباح فيها النخاسة . هي التي ينهض
 فيها الشعب نهضة واحدة على ظلم الحكام وفساد المسيطرين . هي

التي يكون شعار كل امريء فيها
لا تسقني كاس الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كاس الخنظل
المدينة العظمى هي التي لا يتداخل في شؤونها سلطة اجنبية .
هي التي يكون كل امريء فيها سلطاناً بنفسه بل تمثالاً حياً للحرية
والاخاء . هي التي يعتبر الحكام فيها كخدام يخدمون بالاجرة .
هي التي يتعلم الاولاد الاستقلال وعزة النفس في مدارسها قبل
سائر العلوم . هي التي تطلق فيها حرية القول والعمل ويكثر فيها
التنقيب والبحث وتثمر فيها الفنون وتتعزز فيها الاداب .
هي التي تكون الصداقة فيها امرأ مقدساً والاخلاص محترماً
كسر من الاسرار الالهية . هي التي لا تكره الامراة فيها على
الاقامة مع رجل لا تحبه ولا الرجل مع امراة لا يحبها . هي التي
يكون الابوان فيها صحيحي الجسم والعقل قويين نشيطين مدركين
فيوجدان نسلأ قوياً مدركاً نشيطاً . ان لم تصلح صحة هذا
الجيل فلا رجاء لنا في المستقبل . المدينة العظمى هي التي تكثر
فيها الامهات الحزيمات العزومات المدركات ما سما من مقاصد
الحياة فلا يعلمن اولادهن الخرافة والكذب والمراوغة ولا يعودنهم
الطاعة العمياء والجبانة والخوف . الشرق يحتاج الى الام التي
تعلم اولادها الاعتماد على النفس فوق كل شي . المدينة العظمى
هي التي تسير النساء في اسواقها سافرات ويحضرن الاحتفالات
العمومية كالرجال ويشاركن كالرجال في البحث والارشاد . هي

المدينة التي يستغني فيها اهل الادب والفنون عن اهل المال . بل هي التي يتأسس فيها دائرة اوقاف لا لخدمة المعابد واعاشة رجال الدين بل لخدمة العلوم والفنون . لخدمة النوابغ والعلماء . اي سادتي . عبثاً تسن الحكومات الحرة شرائع حرة ان لم تطلق انفس العلماء وارباب الفنون من قيود المصلحة ومن هموم الارتفاق قيل لبعض العرب ومن سيدكم ؟ فقالوا فلان . فقيل بيم ؟ فقالوا احتجنا الى علمه واستغني عن دنيانا ان مثله تكون العلماء والامراء . وبمثله ان شاء الله ستفاخر المدينة العظمى سائر مدن العالم . (احب ان اتمثل بابناء هذه اللغة لتأكدوا ان مثل هذه المدينة العظيمة لا يستحيل وجودها في بلادنا) . اليكم اذن بمثل اخر . قال سيد من العرب لقومه : اعلموا انني حاسدت عليكم حتى صرت عبداً لكم . اغدق على سائلكم . واصفح عن جاهلكم . واحوط حريمكم . وادفع غريمكم . فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي . ومن فعل فوق فعلي فهو فوقني . ومن فعل دون فعلي فهو دوني . فهل ياترى يوجد بين المتمدنين اليوم من تجتمع فيه هذه الخلال الشريفة كلها . افلا يحق لمدينة المستقبل ان تفاخر سائر المدن بمثل هذا الامير .

وبين رجال العرب من كان اعظم منه . دخل ابن العباس على علي بن ابي طالب خارج الكوفة وهو يقطب نعله فقال له : ما قيمة هذه النعل فقال ابن العباس : لا قيمة لها . فقال علي :

لهي احب الي من امرتك الا ان اقيم حقاً او ادفع باطلاً . فالمدينة العظمى هي التي يكثر فيها مثل هؤلاء . الرجال العظام الصالحين . هي التي يتعود كل امري . فيها محاسبة نفسه فاذا كان ممن لهم شي . من الشهرة او المجد او القوة او النفوذ او السلطة او المال يسأل نفسه كل يوم وما قيمة هذه الاشياء كلها الا ان اقيم حقاً او ادفع باطلاً . ما الفائدة من هذه السيادة او من هذه الشهرة او من هذه الاموال اذا كانت لا تساعدني على تصرة الحقيقة واقامة الحق ودفع الاباطيل والاضاليل . ما الفائدة منها اذا كانت لا تبعثني في الاقل عن هذه الظلمات وسكانها وعن اسياها وعبيدها . وقد قيل شر من الجهل نصرة الجهال واسوأ من الضلالة الاحتجاج للضلال .

اجل سادتي . ان المدينة العظمى هي التي تنتصر فيها الحقيقة قولاً وفعلاً . هي التي يروج فيها الصدق كما هو الكذب رائج في العالم اليوم . هي التي يعيش فيها الادباء والعلماء لا للشهرة والمجد ولا للكسب والمال فقط بل لخدمة الحقيقة فكراً وقولاً وفعلاً . ان فروسية اللسان لغير فروسية الجنان . وما كل من هز لسانه فخراً ومباهاة يستل حسامه في الغارات . فالنفس الراقية التي تعيش لهواها وشهواتها واباطيل المجد والسيادة فقط هي كالكلب الافرنجي الجميل الذي يقضي حياته كلها تحت قدمي سيده او تحت رداء سيده . والعجب في امر هذه النفس انها

كلما امعنت في الذات اكفهرت في وجهها افاق الحياة . وقد قال
احد المتصوفين

ان المرآئي لا تريك عيوب وجهك في صداها
وكذاك نفسك لا تريك عيوب نفسك في هواها

وها اني ذكرت من المحاسن والاماني ما ستفرد فيه المدينة
العظمى عن سائر المدن . وهناك امنية اخرى بل نبوة لاحد
الانبياء ترددت في ذكرها . وليلة كنت افكر في هذا الموضوع
طرق بيتي طارق ففتحت فاذا بالباب شيخ جليل عاري الرأس
حافٍ لابس قميصاً بيضاء فوقها رداء اسود مسدولٌ على كتفيه .
وقف في الباب ورأسه منحني فوق يديه المضمومتين على
هراوته . ولما فتحت دخل دون استئذان وسار تَوّاً الى مكثي
وجلس هناك على كرسي امامي . فاخذني من امره العجيب .
ولكن قبل ان بادرت به بالحديث قال : جئت احقق امنيتك وامدك
باخر من ارآئي . فقلت والدهشة تملأ نفسي . ومن انت يا سيدي .
فقال : انا هو .

— زدني علماً .

-- هو الذي يخطر الآن في بالك وتحير نبوءته قلبك .

— يا لله ! انت اشعيا بن آموص ؟

-- نعم انا اشعيا .

فنهضت على الفور عن كرسي . وقبلت يد النبي . ولما رأته

قد تبسم تشجعت وقيلت ايضاً شفثيه ولا ترالا ملتبهتين ناراً . ثم
تجاسرت فقلت : جثتنا يامولاي وقت العشاء فهلا باركت الخوان
واكلت معنا من عدس لبنان ليصير بيننا كما تقول العامة خبز
وملح . فاولماً برأسه مبتسماً وتقدمني الى غرفة الطعام . وبينما نحن
في طبخة يعقوب بادرته بالحديث فقلت ألم تتبأ يامولاي منذ
الوف من السنين يجيل يرعى الذئب والحمل فيه معاً والاسد
يأكل التبن كالبقر والناس يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم
مناجل ؟ فحنا النبي رأسه مجيباً بالايجاب .

او لم تقل في رؤساء اورشليم انهم عصاة وشركاء اللصوص
وانهم يحبون الرشوة ويتبعون الاجور وأن الرب سيقطعهم من
اسرائيل ؟ فحنا النبي رأسه ثانية . فقلت : وها قد مضى على ذلك
يا صاحب النبوة الوف من السنين والعالم لم يزل كما كان يوم
صببت عليه شآبيب غضبك . فاجاب اشعيا قائلاً : ان الوف
السنين التي مرت على نبواتي هي كالدقائق في عين الله . وان
الاجيال بالنسبة الى الابدية هي كالساعات بالنسبة الى الاجيال
فلا يريك كلامي . ردد نبوتي ولا تخف . بشر بالمدينة العظمى
في بلادي وبلادك ولا تياس . قال هذا وهم بالانصراف .
فاستأذنه بسؤال آخر فقلت : وكيف كان يكلمك الله يا صاحب
النبوة ويطلعك على غيب الامور ؟ فقال النبي : مثلما انا اكلمك
الآن . وقبل ان فتحت الباب استحال شعله نار . وتوارى عن الابصار

لا تظنوني مازحاً ايها السادة . فان للانبياء المقام الرفيع في العالم الروحي . ولا تزال لهم تلك السطوة الصالحة على الانفس السامية . وانك اذا حككت نفس النابغة في الناس لتجد في لها شيئاً من روح النبوة . المدينة العظمى اذا هي التي تتم فيها نبوة اشعيا . هي التي يسير الذئب والحمل والنمر والجدى فيها معاً . هي التي يرتاح فيها الناس من شرور اصحاب السيادة الدينية هي التي تنقطع فيها سلية اولئك المفترين على الله وانبيائه . الجالسين على عروش القداسة الكاذبة . القابضين على صولجان الخرافة . المتوجين بتيجان الجهل والتعصب والطغيان . ان مصيبة الشرق في رجال الدين والكهان لا في الانبياء والاديان . المدينة العظمى هي التي يسود فيها العلم والحريية والاخاء والوفاء . هي التي تنتصر فيها القوى الروحية على القوى المادية . والقوى العقلية على القوى المادية . هي التي تطبع فيها آلات الحرب معاول ومحارث ومناجل . هي التي تشيد فيها الصروح والمعاهد لارباب الموسيقى والشعر والتصوير . ولربات الفنون والجمال . هي التي يكثر فيها من امثال علي بن ابي طالب واشعيا بن آموص وذاك الامير العربي الذي ساد قومه لانهم احتاجوا الى علمه واستغنى عن دنياهم . اي سادتي . ان المدينة التي ينبغ فيها اعظم الرجال واعظم النساء لمي اعظم مدن العالم وان كان سكانها لا يتجاوزون عدد سكان الفريكة .

قيمة الحياة^(١)

ايها السادة والسيدات .

عند ما وصلتني دعوة جمعيتكم لاخطب في حفلتها السنوية هذه كنت مهتماً بانجاز تأليف جئت في بعض فصوله على ذكر اجدادنا الفينيقيين . فسرتي ان ارى شيئاً من علو همتهم ونشاطهم في ابنائهم الصيدونيين . سرتي ان ارى مصابيح العلم والعرفان تضيء على هذه الشطوط القديمة التي نشأت في ربوعها اللغة وكبرت فيها همة الفينيقي التجارية والعقلية فجاء بما يدهش الافرنج حتى اليوم من آيات الفكر الباهرات . ومن غرائب الاكتشافات والاختراعات . سرتي ان اري روح اولئك الاجداد الكرام تنبعث اليوم فينا فتنهض بنا الى العلياء . وعجبت بصدف ترينا في صدف الحوادث لو'لو' الاماني . فلبيت الدعوة على ما كنت فيه من شغل شاغل وتأهب للسفر مزعج حياً بزيارة مدينتكم وبمساعدة هذه الجمعية الوطنية في مشروعها هذا اذا كان في حضوري ماينفع وفي كلماتي ما يفيد . على اني في قراءتي كتاب الجمعية وقفت عند عبارة مدهشة فيه والظاهر ان كاتبه الكريم طويل الباع في طرق الاطراء واساليبه . فبعد ان غلاني بالغلو واغرقني بالاغراق . رغب الي ان

(١) خطبة القيت في حفلة جمعية الخدمة الوطنية بصيدا في ١١ اذار

اتحفكم بخطبة « لم تفتق رتق سمع » ولا خطب مثلها في جمع «
 - السجعة له لا لي - فقلت في نفسي وماذا يتغني الصيدونيون
 مني وما انا بصاحب معجزات او كرامات . ان خطبة مثل هذه
 ايها السادة في زمن كثرت فيه المناير والمطابع لا يستطيع ان يأتي
 بها بشر مثلي . لا جديد تحت الشمس ولا فوقها . فالمدنبات التي
 لا تراها نحن الا مرة في حياتنا مثلاً قد مرت لا شك في فلك
 الارض بمرأى من اسلافنا مرات عديدة في ما مضى من الزمان .
 لا جديد اذاً فوق الشمس . وصوت الحقيقة الذي احب ان
 اسمعكم اياه هذه الليلة طالما رددته قبلي العلماء والانبيا . لا جديد
 اذاً تحت الشمس . على انني استطيع ان احدثكم بلغة لم تسمعوها
 بعد اذا كانت بغيتكم تنحصر في مجرد روئيتي واستماعي خطيباً .
 يمكنني ان احدثكم في عصارطة ^(١) السياسة ودهاقينها ^(٢) ، الذين
 يلهوجون ^(٣) اعمالهم ويلهوقونها ^(٤) . او في زرازة ^(٥) يمشون في
 الارض سهيلاً ^(٦) ، ولا يحسبون سواهم للمجد أهلاً ، او في
 سباهلة ^(٧) يجمشون ^(٨) العجنجرات ^(٩) ، ويعدون ترهات العصر

(١) العصارط الخادم على طعام بطنه والاجير واللثيم (٢) الدهقان
 « معربة » رئيس الاقليم (٣) لهورج الامر لم يبرمه والشواء لم ينضجه
 (٤) لهورق العمل لم يحسنه (٥) الزرزاز البترك « اعجمية »
 (٦) جاء الرجل سهيلاً اي مختلاً وغير مكترث (٧) سهيل بطل كسل
 (٨) جمش غازل (٩) العجنجرة من النساء الخفيفة الروح

ايات منزلات ، او في رعايب ^(١) يسمدن ^(٢) في المركبات ، او
يتبهنسن ^(٣) في العرصات ، ويحسبن المخشلب ^(٤) على صدورهن
درراً وریش الطيور على رؤوسهن تيجانا . او في صفاريت ^(٥) من
الادباء يطوفون حول القصور المشمخرات ^(٦) ، عليهم يفوزون
بشيء من اعلاق ^(٧) السراة ، او في خريت ^(٨) من ولاة الامر
خيدع ^(٩) اذا استذريت ^(١٠) به قاذك الى محطة سجيل ^(١١) . او
في غطريف ^(١٢) كبير ، ترفته الدنانير ، وحسدته على اذنيه الحمير ،
او في متنطع مخربق ^(١٣) دفطس ^(١٤) وقته في حشو جوجوه ^(١٥)
بما لا يفيد من العلوم . او في - ولكن البساطة اولى واشفى .
مالنا وخطبة « لم تفتق رتق سمع . ولا خطب مثلها في جمع »
قد اسمعتكم ما يفتق الاسماع حقاً بل يفلق الصخور .

(١) الجارية الرعوب الحسنة الرطبة الحلوة الناعمة (٢) سمد
الرجل رفع رأسه تكبراً (٣) تبهنس تبختر (٤) مخشلب خوز
من الزجاج (٥) الصفريت التقير (٦) اشمخرتال والمشمخر من
الجيال العالي (٧) العلق النفيس من كل شيء (٨) الخريت الدليل
الحاذق الذي يهتدي الى آخرات اي مضائق المفاوز وطرقها الخفية
(٩) الخيدع من لا يوثق بعودته (١٠) استذرى بفلان التجأ اليه وصار في
كنفه (١١) سجيل وادري في جهنم والمحطمة باب فيها (١٢) الغطريف
السيد الشريف (١٣) تنطع في الكلام تعمق وغالى وتأنق . والمخربق
المطرق الرصين (١٤) دفطس اضاع (١٥) الجوجو الصدر .
وهذه عشرون وخمس فعلات لغويات استغفر الله منها .

سأحدثكم الليلة في موضوع قريب منا كلنا . وبلغت تسمعونها كل يوم . وبعبارة تفهمونها وانتم الى اشغالكم سائرون . موضوعي قيمة الحياة . واريد بادي . يد . ان اسدل ستاراً على الماضي وآخر على المستقبل فاحصر الحياة في الحاضر واسألهم سوّالاً : لو علمتم حق العلم ان الحياة صدفة من صدف الطبيعة وان لا سابق قصد لها ولا لاحق . لا قوة مدركة وراء المهد ولا وراء اللحد . فترسلها وتبعثها عقلاً وروحاً وبكلمة اخرى لو تأكدتم ان الحياة مادية محض والموت ضجعة ابدية فكيف تعيشون ياترى وكيف تعملون لترفعوا من قيمتها وتجنوا الناضج اللذيذ من ثمارها ؟ تجعلون قاعدتها الاساسية قاعدة التجار والتمولين ان لا حقيقة في العالم الا المال ؟ اتقولون قول السياسيين والمسيطرين ان لا حق في العالم الا للقوة ؟ اتذهبون مذهب فلاسفة اليونان الكلبيين ان لا حقيقة في العالم الا للذات . او تقولون قول حشاشي الزمان القديم ان لا حقيقة في العالم على الاطلاق وكل شي . مباح ؟ لو تأكدنا ان الكون مركب من المادة والقوة فقط وان الحياة كذلك أفينبغي ان نعيش كالحوانات ؟ وان نحن فعلنا انأمن شر انفسنا ان لم اقل شر الاقوياء . فينا . اذا احب احد الناس ان يعيش كما لو كان هو العالم وبيته الدنيا واستطاع الى ذلك سبيلاً أيستطيع ان يذهب على هواه دون ان تذهب حياته ضحية الاطماع والاهواء ؟ ولو ضحاني هذا السيد العظيم الاثيم

وضحاكم على عرفات قدسه ومجده واهوائه ايامن ياترى صولة
الجماعات حين يستيقظون فينهضون ؟ ايامن هو ويد فوق يسه
تاخذ بناصيته يوم يثار الحق باعدائه ؟

حكيم عبد الحميد ثلاثاً وثلاثين سنة وهو لا يحسب ان في
العالم من ينبغي ان تراعى حقوقهم وحياتهم سواء . فاذا كانت
عاقبة بغيه وجوره واثرته ؟

لا انكر ان نظرة عمومية سطحية في احوال الانسان
الاجتماعية ترينا الشرير يسعد بشره والصالح يشقى بصلاحه .
ولكن ذلك لا يكون الى الابد . وانما يظهر كذلك لمن لا ينظر
في الامور الى ما وراءها . لمن لا يرى في الحياة غير ظواهر
الحوادث . مات كثيرون ممن قاسوا اليم العذاب من الدور
الماضي دون ان يشاهدوا نكبة سلطانه واعوانه . ماتوا يائسين
من الحياة التي ينتصر فيها مثل هولاء الاشرار الكبار . ولكن
قصر نظرهم فيئسوا . ولو تشوفوا الى المستقبل وكان ايمانهم
شديداً بالعناية التي لا تترك الاثيم عزيزاً الى الابد لما ماتوا
يائسين . ان ما نراه نحن اليوم مثلاً وننفر منه ساخطين حانقين
ليراه غداً آخرون فيستجلون فيه اليقين . ان شر الامس لينتج
اليوم خيراً وخير اليوم قد ينتج غداً شراً . اجل سادتي . ان في
الاشياء والاكوان عناية لا يعقلها الانسان ولا يدركها ارباب
العرفان . ان في الحياة اسراراً تدك العروش وترزع الجبال لو

تجلت كلها دفعة واحدة في آن واحد . ولكنه تعالى عليم رحيم .
فهو لا يمكِّننا الا بما نحتاج إليه من القوات الخفية في الحياة
فنستخدمها لو عقلنا خيرنا ومنفعتنا . ونقف صابرين هادئين ثابتين
امام مفضعات الوجود ومبهجاته . وعندى ان هذه الاسرار تتجلى
للانسان تدريجاً على حسب ارتقائه العقلي والروحي . ذلك لان
الحياة سلم اوله الحيوان . ووسطه الانسان . وآخره الملاك . وقد
يأتي يوم يشاهد فيه ابنا الارض رجل المستقبل العظيم وقد
ترقت فيه القوى الحيوانية كلها اي القوى الحيوانية والبشرية
والالهية الى منتهى الدرجات . فالانسان مركب من هذه القوى
كلها وهي كامنة فيه الى الابد . فان رعى احداها دون الاخرى
يقف في سلم الارتقاء وطبائع الحياة فيه ناقصة فاسدة . نعم انى
ممن يعتقدون بالنشوء والارتقاء ولا حاجة الى ان يؤيد العلماء
اعتقادي . فاني لمؤيده بما اعرفه وبما اجهله من لوح هذا الوجود .
من الحياة ومن الاكوان . ان في نشوء الانواع وارتقائها عناية
لهية عظيمة . والناموس الطبيعي الذي يكتر من ذكره العلماء
انما هو مشيئة الله في الاشياء . انى لأرى يد الله في كل مظهر من
مظاهر الحياة . واوئل ان ارى ولو بعد موتى بليون من السنين
روح الانسان متجاية في كل مظهر من مظاهر الله .

اراني تجاوزت الحدود الوهمية التي حصرت هذا الوجود ضمنها
فاصبحت والماضي والمستقبل يتجاذبان في المعقول والمحسوس .

وكيف نستطيع ان ننظر في الحياة نظرة بعيدة صائبة دون ان نتلفت الى الماضي ونتشوف الى المستقبل . كيف يمكننا ان نقيسها لنعلم قيمتها وكل شي . فينا وحولنا ينطق بما مضى وبما هو آت ، ما هو قسم جوهرى من الحياة البشرية ؟ احببت ان احصر الموضوع في الحاضر لاريك ان الحياة وان كانت مادية محض لا يستطيع الانسان ان يذهب فيها حسبما يشاء ويسترسى الى ملاذ هوانه دون ان تخثر نفسه . فيغلب شعوره . فيكثر عثاره . فيشتد بلاؤه . وان شقاء الناس اليوم لنتاج عن هذه الحياة المادية الحيوانية التي يكبرونها ويعززونها ويعرقون دماً في سبيلها . الا اننا نعيش اليوم كما لو كانت الحياة منحصرة في (البورص) والمخزن وغرفتي الطعام والنوم . نعيش كما لو كان قوام الحياة في جمع المال وفي تربية دود الالهواء والشهوات . ويا لها من دود تحوُّك للنفس وللجسد اكفاناً من الحرير . نعيش كما لو كما الات هضم واكثرها في هذا الزمان مصدنة . وانصاب مجد واكثرها متهدمة . فالسياسي لا يرى في الحق قوة تستحق الاعتبار ان كان الحق لا يؤيده في ضلاله وفساده . ورجال الدين يصمون اذانهم عما جاء في كتب الدين من سيد التعاليم ويستخرجون من بعض الايات والعقائد قواعد تمكّنهم من الضغط على الانفس والعقول لتكون لهم في ذلك سلطة ما انزلها الله على احد من الناس . والصحافيون يزفون ثناءهم لهذا الخاطب ويبذلون

شهادتهم لذلك الطالب حياً باعلان او اشتراك يجرزونه . او انهم
يوقفون الحق على رأسه غواية ونكاية . او انهم يتحاملون على
الناس ويشيرون المفاسد والفتن حياً بالظهور والاشتهار . والغني فينا
يعيش كما لو كانت الاموال تقيه الموت وتكسبه الخلود . والتاجر
يضرب احماساً لاسداس ليل نهار فيستنبط طرقاً بل حياً جديدة
للكسب والاثراء . والوجيه الفاضل الواقف على شفير الافلاس
يكتد الفلاحين الفقراء . ويعرقهم ليؤيد فيهم منزله العالية ومقامه
الرفيع الشأن . ترانا نعيش كأن الحياة بنت يومها منحصرة بين
شارقة وغاربة . مركبة من امشاج لا اثر فيها للعقليات والروحيات .
بلى . نعيش كما لو كنا مركبين من السنة ومعد واصكباد فقط
فنجسن اللقطة والكبكية والشر الثالث الذي ذكره النبي في
خديته الشريف ولا نحسن سواها . نعيش لاهوائنا واطماعنا
وملاذنا . نعيش لمجد في العالم باطل . نعيش لوجاهة فينا فارغة .
نعيش لازياء تستعبدنا . لعادات واصطلاحات تسوقنا الى المذلات .
وفوق ذلك نعيش في الخداع والجربذة والتلبيس . نخادع لخوف
فينا يسودنا . نلبس على الله والناس لغايات في النفس خبيثة
ذميمة . نتأخى طمعاً بربح من هذا الاخاء . نتصادق حياً بما
في الصداقة من عائدة مادية بائدة . وقد قال المتنبي :

ولما صار ود الناس خبياً جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن اصطفيه لعلمي أنه بعض الانام

كانت لامرئىء كرمه يأوي الثعالب اليها ويفسدون فيها .
فنصب هناك مفزعة او خيال صحراء ليردعهم عنها فجازت الحيلة
على الثعالب وعجبوا لصاحب كرمه يجرسها ليل نهار ليقطع
نصيبهم منها . الا ان احدهم وكان اشجعهم وادهاهم بادره الريب
من ذلك فجاء الكرمه ذات يوم ووقف ساعة امام المفزعة دون
ان يفزع منها . ثم تقدم اليها قليلاً قليلاً وضربها بيده فوقعت
الى الارض . فضحك ثم ضحك ورفع فوقها جنبه . وراح يدعو
اخوانه الى اجتماع وطني سياسي . وخطب فيهم قائلاً : ان الانسان
لخداع مكار . فقد حرمانا نصيبنا من الكرمه بخيال نصبه فيها .
ومن رأيى ان نحذو حذوه لنفوز عليه . فاقترح عليكم نصب خيال
اسد هناك لننال قسمتنا من الكرمه . فصفق الثعالب الجياع له
ونصبوا في كرمه الانسان مفزعة بهيئة الاسد . ولما جاء الانسان
في اليوم التالي ورأى الاسد واقفاً هناك ينظر اليه وقف شعر
رأسه وهول راجعاً الى بيته . وكذلك نال الثعالب الجياع
قسمتهم من الكرمه . خدعهم الانسان بخيال فخدعوه بمثله .
وكم من خيالات وبعبعات تحفظ اليوم كياننا وتدفع عن
شرفنا الوهمي عاراً وهمياً . كم في حقول الدين وصحاري السياسة
وكروم التجارة من مفزعات لو ضربت مرة لاصبحت
مفضحات . اجل ان الحياة اليوم سواء كانت في ارقى مظاهرها

الاوروبية او في افنخ مظاهرها الشرقية انما هي حياة خاسنة
 فاسدة ناقصة . هي عند الغربيين محض مادية تجارية . وامست
 عندنا لا مادية تعرف ولا روحية . حياتنا ايها السادة . وان كنا
 لا نزال نؤم الكنائس والجوامع كاجدادنا . ان هي الا العوبة في
 روحياتنا واضحوكة في مادياتها . هي مزيج فاسد من الاثنين .
 وهذا سبب الشقاء والبلاء والفساد في طبقات المجتمع كلها . بل
 هذا من وجهة خاصة السبب الاصل في انحطاط الشرق والشرقيين .
 ولكني اقول . وحق ما اقول . ان سيادة الاربيين في الشرق لا
 تدوم طويلاً اذا كان اساسها القوة المادية فقط . وان نهضة الشرق
 لا تنجح اذا كانت أسسها الروحيات فقط . الكتب المقدسة
 تصلح الحياة . ولكنها لا تعمر البلاد . والعلوم المادية تعمر
 البلاد ولكنها لا تصلح الحياة . اذن كتبكم المقدسة احفظوها
 وكتب العلم عزوها . وكل كتاب ايها السادة يساعد على حفظ
 الحياة وتمسينها وارتقائها هو عندي كتاب مقدس كريم . والحياة
 الصحيحة القوية الجميلة السابغة هي التي تتغذى بكل كتاب
 مقدس روحياً كان موضوعه او مادياً . ذلك لانها مركبة من
 الاضداد . ذلك لانها مادية روحية عقلية . ومن النواميس
 الطبيعية المعروفة ان قوى الانسان تنمو وتشتد في التمرين
 والممارسة . فاذا كنا لا نمارس الاقوانا الحيوانية وفيها قوى اخرى
 عقلية روحية نضل ولا شك في درجة واطئة من سلم الحياة . بل

نظل والجهل والبلاء. اكبر ما في حياتنا. ذلك لان القسمين
الكبيرين فيها اعتراها الفساد من الالهال. ولو مرّ المرء قواه
العقلية والجسدية فقط لظلت الروح فيه مهمة مغبونة. وكثيراً
ما تكون تشوّقات النفس المظلومة سبباً لعوارض وامراض
شتى. كثيراً ما يكون شقاوتنا ناتجاً عن فساد احدى قوانا العقلية
او الروحية.

وها اني وصلت الى الحد الذي ينبغي ان نعرف عنده الحياة
لنعرف كيف نقيس قيمتها. قد اتضح مما تقدم ان الحياة اصلاً
انما هي قوات عقلية روحية مادية تظهر في الناس بمقادير متباينة
ناقصة ولكنها كامنة بالقوة وغير محدودة في كل نفس بشرية.
قلت « انها كامنة بالقوة » والعبارة فلسفية وضعية لا احب ان
اردها واكثر من مثلها. على انني اورد الفكر بعبارة بسيطة.
ان في كل منا قوى غير محدودة من هذه الينابيع الثلاثة تظهر
فينا او في نسلنا بمظاهر شتى طوعاً لا حوال نعقلها اذا اعتبرنا
ولاسرار لا نستطيع اليوم ادراكها. هذي هي الحياة نظرياً.
مبدئياً. واما عملاً - آه لو كانت حياتنا الدنيا ابتسامة دائمة
تبتدى بالسرور وتنتهي بالابتهاج. آه لو كانت حلماً من احلام
الشعراء او لحناً مطرباً مفرحاً من الحان الموسيقيين! ولكن الحياة
في نظر احد القديسين انما هي عقاب الانسان في هذا العالم. وفي
نظر الفيلسوف هي سلسلة من حديد المصائب فيها حلقات قليلة

من ذهب العزاء والهناء . وفي نظر الشاعر هي هيئات هيولية
 محزنة الاسرار سامية غامضة . هي خيال زائل لحقيقة ازلية دائمة .
 وفي رأي سيدنا سليمان : كل شيء باطل وقبض الريح . وفي رأي
 جمهور الناس انما الارض وادي الدموع . فالقديس اذا والفيلسوف
 والشاعر والحكيم والناس كلهم مجتمعون على ان حياتنا الدنيا
 لا تساوي العناء الذي نقاسيه من اجلها . بل لا تساوي العرق
 الذي يتصبب من جباهنا في سبيلها . ولكني ارفع على هذه
 الآراء كلها رأياً اخر اود لو سمعتموه وحفظتموه وتمثلتم به في
 كل موقف وفي كل آن . الا ان الحياة صالحة اذا كان المرء صالحاً .
 وهي جميلة اذا كانت نفس المرء جميلة . والانسان لا يكون
 صالحاً ونفسه لا تكون جميلة اذا كان لا يربي ويرقي فيه قواه
 الروحية والعقلية والمادية كلها على السواء . ومن النادر ان نجد
 في العالم اليوم حياة تامة الاجزاء ارتقاء ونشاطاً وادراكاً في شخص
 واحد . فاذا كانت القوة العقلية عظيمة في احد الناس راقية . تكون
 القوة الروحية او الجسدية فيه منحطة . والعكس بالعكس .
 ودفعاً لما قد يكون في كلامي من الابهام ازيدكم ايضاحاً
 بما اريده بالحياة التامة الاجزاء ارتقاء وفهماً ونشاطاً . فالقوة
 الحيوانية التي ينبغي للانسان ان يرعاها ويتعهد بها بالتربية تظهر
 نتائجها في صحته وصحة نسله . والقوة الروحية تظهر في شعوره
 الراقى وحبه . والقوة العقلية في ادراكه ونباهته وحكمته .

واعلموا ان العالم مثلاً يكون غالباً قوي الادراك ضعيف الشعور والشاعر شديد الشعور ضعيف الادراك . والفلاح او البدوي يكون غالباً شديد الجسم ضعيف الشعور قليل الادراك . اما قيمة الحياة في كل من هؤلاء وان كانت ناقصة فتختلف بالنسبة الى ما يأتون به من الصالحات الباقيات . فقد تكون قيمة حياة البدوي في نسله اعظم منها في نسل العالم . وقد تكون في الشاعر اعظم منها في العالم العلامة والخبر الفهامة .

قد لا ينتبه ارقى الشعوب حتى في هذا العصر الى ما في الوجود من دواعي الارتقاء كلها ومن الصحة والسعادة . ففي الشرق نظن الوسخ عرضاً . والحمول نعمة . والخبيل مصدراً للتجليات الروحية . وعن هذه الاوهام ينشأ التقشف والزهد وما يصحبهما من اذلال الجسد واماتته . وفي الغرب بدأنا نرفع من اسباب النظافة والصحة الى حد لا تعلوه اقصى الغايات . وقد قال الفلاسفة هناك ان من واجبات الانسان الاولى ان يكون حيواناً نشيطاً قوياً . ولكن اذا نحن اهملنا ترويض الاجسام فهناك بدأوا يهملون ترويض الارواح . وفي الامرين نقص ظاهر . على الانسان ان يعتني على السواء في تربية وترقية قواه العقلية والجسدية والروحية كلها . سأضرب لكم مثلاً من هذا النقص في التربية حتى في مشاهير الرجال . في الفيلسوف سبنسر كانت قوة الادراك راقية الى حد نادر المثال عجيب . واما قوة الاحساس

والعُطف - اي القوة الروحية - فكانت فيه اضعف مما قد تكون في احد سكان اواسط افريقيا . وفي الشاعر دنته نجد القوة الروحية عظيمة في شعره كما كانت في حياته . واما القوة العقلية اي قوة الادراك فما هي كذلك . ومثل هذه الموازنة تصح بين ابن الفارض وابن رشد . او بين البهاء زهير وابي العلاء . وعندني ان الفيلسوف سبنسر والشاعر دنته . او العالم باستور والقديس اوغسطينوس . او ابن الفارض وابن رشد ليتجسدان في رجل المستقبل العظيم . اجل . سيجبل الله انساناً جديداً كاملاً من الطينتين . النصفين . وهو على كل شيء قدير .

من هذا يتضح لكم رأيي في ماهية الحياة واقصى غاياتها . اي سادتي . ان الحياة الحقّة هي التي تجمع بين محاسن فلسفة الروحيين وفلسفة الماديين . هي التي يشارك صاحبها ابيكوروبس في لذاته وافلاطون في روحياته وسقراط في ادراكه وحكمته . هي التي تعظم فيها قوة الجسد وقوة العقل وقوة الروح . هي التي تولف بين اول درجات سلم الحياة وآخرها . بين الحيوان مصدرها والملاك محبتها . مثل هذه الحياة كثر من كنوز الدنيا وقيمتها لا تقدر ولا تحدد .

اما حياتنا اليوم - حياة عالمنا او تاجرنا او كاهننا او فلاحنا - فهي ناقصة . ضيقة . خاسئة . فاسدة . وكذلك نتائجها . فكم من عمل فيه اخلاص وما فيه شيء . من العقل ؟ وكم من عمل فيه عقل

وما فيه شيء من الاخلاص ؟ وكم من عمل فيه اقدام وشجاعة بل قحة وسلطنة وما فيه ذرة من العقل والاخلاص ؟ ومع ذلك اننا نستطيع ان نجعل حياتنا اليوم ذات قيمة تذكر اذا سرنا الى غرضنا بحزم وعزم ونشاط وثبات واقتطفنا من الاعمال الناقصة . ما هو صحيح ناضج من ثمارها . اذا كنا حقاً احراراً . اذا كنا صادقين مخلصين محبين مدركين فنعرف اين تنتهي حريتنا واين تبتدي . حرية جارنا . نهد بشيء من العلم والصلاح سبيل الحياة الحقة التي وصفتها . الحياة البشرية المستقبلية التامة الاجزاء ارتقاء وصحة وفهماً . نعم ان قيمة مثل حياتنا اليوم لمي ناقصة تافهة ولكنها بالنسبة الى ما هو دونها تستحق الاعتبار . حسبنا ان تنقص فينا اليوم الجريرة والتلبيس والخداع فتعلو بقدر ذلك النقص قيمة الحياة . حسبنا ان يتقدم في كل بلد احد الناس الاقوياء بصلاحيهم . الجريئين بفكرهم . فيضرب احدى مفرعات الناس ويحطمها . الخيالات والبعيئات والاهام والخزعبلات . كلما زال شيء من هذه ترتفع بقدر زوالها قيمة الحياة .

قل لي اذا ايها المحترم ما هو اعتقادك الحقيقي فاقول لك ما هي قيمة حياتك . قل لي يا صاحب السعادة والعزة ما هي امالك في اعمالك فاقول لك ما هي قيمة حياتك . قل لي ايها الصحفي الحر ما هي غايتك الكبرى في تسويد الصحف فاقول لك ما هي قيمة حياتك . قل لي ايها العني ما هو قصدك الاولي

في جمع المال فاقول لك ما هي قيمة حياتك . قل لي ايها الانسان
ما هي اسرار قلبك اقل لك ما هي قيمة حياتك . قولي لي ايها
الامرأة ما هي غايتك القصوى في الدنيا اقل لك ما هي قيمة
حياتك .

اخواني . اخواتي .

ان قيمة حياتنا اليوم ما نزرعه في القلوب من البر والصلاح
وفي العقول من العلم والحكمة . قيمة الحياة ما يعود اليها من
ثمار الحب الذي نزرعه في صدور الناس . قيمة الحياة ما يأتي به
كل منا من الصالحات الباقيات مادية كانت او عقلية او روحية
فالغني الذي يقدر حياته بما عنده من المال يرفع من قيمتها اذا بذل
من ثروته لنشر المعارف . واستتصال الامراض . وتخفيف وطأة
البؤس والظلم في العالم . والعالم الذي يقدر حياته بما عنده من
العلم يرفع من قيمتها اذا محص علمه من الغش والخداع . من
السفاسف والاهام . وبشه في الماس صافياً لوجه الله . والمتقشف
الذي يقدر حياته بما عنده من الزهد والتقوى يصنع خيراً اذا
كان تقشفه يفيد في الاقل افادة سلبية فيخفف فينا وطأة زخرف
هذه الحياة المدنية . على ان العالم والغني والزاهد قلما تنفع حياتهم
وقلما تكون ارفع قيمة من حياة احقر الناس واجهلهم اذا كانوا
لا يعملون لغير انفسهم . وشرا الحياة حياة لا عطف فيها ولا
اخلاص ولا حب ولا حماسة .

واما رجل المستقبل . ذاك الذي تتم فيه اجزاء الحياة كلها
 وتتساوى صحة ونشاطاً وفهماً ورقياً . فيتمكن ان شاء الله
 من الجمع بين حسات العالم والغني والمتكشف . بين محاسن العقل
 والجسد والروح . بين الخيال والحقيقة . بين جمال الشعر وجمال
 الحكمة وجمال الصحة . مثل هذا الرجل يعيش في الحاضر كما
 لو كان الحاضر الابدية كلها فلا يعمل عملاً لا يشترك فيه عقله
 وروحه وقلبه . هو يشغل رأس ماله في اسواق الحياة الثلاثة فلا
 يكون عالماً عاجزاً لا يحسن التصرف في غير منزلته . ولا غنياً
 جاهلاً . ولا زاهداً اخبل . هو الذي يجي قواه كلها ويرعاها
 فيغذي العقل والروح دائماً كما يغذي الجسد . هو الذي يروض نفسه
 للشدائد كما لو كانت من ضرورة الحياة . هو الذي لا يعوّل في
 اموره على احد من الناس . هو الذي لا يجترء في البشر الا العلم
 والذكا . والصلاح . هو الذي لا يجاري في سبيل العدل احداً .
 ولا يخشى في سبيل الحق انساناً . هو الذي يعيش لنفسه ولربه
 وللانسانية في وقت واحد . ان حياة مثل هذا الرجل نكتر من
 كنوز الدنيا وقيمتها لا تقدر ولا تحد .



هملت وشكسبير^(١)

يتوقع مني بعض الناس ان اوجه كلمة الى اولئك الذين اساءوا
فهم خطابي الاخير في الكاية الاميركية . ونشروا على صفحات
الجراند مثالا من تسرعهم في النقد وبطئهم في الافتهام . ولكنني
آليت على نفسي ألا اوضح لاحد وألا اجادل وناقش احداً .
فان الذين يعرفونني ويفهمونني بغنى عن الايضاح والذين لا يحبون
ان يعرفوني ويفهموني فانهم لا يقتنعون ولا يفهمون . وان صرفت
ما بقي من حياتي شارحاً مفسراً موضعاً . لذلك لا اضيع وقتي
فيما لا طائل تحته لا لكم ولا لي . لذلك لا اجادل احداً ولا اناقش
بشراً . بل جعلت مبدئي وخطة حياتي هذه الكلمات الثلاث
« قل كلمتك وامش » . فاننا اذا وقفنا لنسمع المداحين والهجائين
الناطقين بالحجارة والناطقين بالازهار . ننصرف عن بث المبادئ
الحرة والتعاليم السديدة في الناس الى ما يعرقل سعينا ويقعد
جهمتنا ويكدر صفاء افكارنا ويعودنا مقاتلة الناس لا تهذيبهم .
لذلك جعلت شعاري « قل كلمتك وامش » .

هذا هو مبدئي وهذي هي خطة حياتي الكتابية . وهذي
هي نصيحتي لاخواني الادباء اجمعين . بناه على ذلك سأقول كلمة

(١) خطبة القيت في مسرح زهرة سوريا ببيروت اول ليلة مثلت فيها

في رواية هذه الليلة كي لا اخرجكم من الموضوع الجميل الذي
انتم فيه . واني لا استحسن قطعاً الخطابة في المواضيع السياسية
والاصلاحية في مثل هذه المواقف الادبية . فانها تصرف افكاركم
عما جئتم من اجله هذه الليلة وتقطع سلسلة الخيال التي تنقلكم من
المكان الذي انتم فيه الى مكان الرواية وزمانها . وهذه من شروط
الاتقان في التمثيل . فان الممثل الذي لا ينسيني وانا جالس على
ذلك الكرسي امام هذا المسرح كوني في بيروت وفي الجبل
العشرين . الممثل الذي لا ينقلني بمغناطيس صناعته الى الدانيمارك
في هذه الرواية لا شاهد هناك مليكها واميرها ورجالها واشباحها
يعانون تكاليف الحياة لا يكون قد احسن اوليات هذا الفن .
يسرني جداً ان ارى روايات نابغة المراسح بل نابغة العالم
تمثل في سوريا . فان شكسبير من سائر الشعراء كجبل الارز
من سائر جبال لبنان . ورواية هملت من روايات شكسبير كضهر
القضيب من جبل الارز . بل شكسبير هو امير شعراء العالم
ورواية هملت هي اميرة روايات شكسبير وكم قام بعده من
المقلدين . من الانكليز والالمان والافرنسيس فاجادوا في طريقتهم
ولكنهم لم يشقوا غيود . مؤلف هذه الرواية الفريدة . ومن مميزات
هذا الشاعر العظيم انه لم يترك عاطفة من العواطف البشرية كلها .
دقيقة كانت او غليظة . واطئة او سامية . راقية او وحشية .
ظاهرة او غامضة . الا والبسها من شعره سربالاً شفافاً جميلاً

واستخرج منها حكمة سامية جليلة . فاذا ذكرنا الحب نرى في « روميوجوليت » ارقه واشرفه واسماه . وفي « ترولس وكريسيدا » احطه واكرهه وادناه . واذا ذكرنا الغيرة يدهشنا بل ينجلنا تمثيله اياها في رواية « قصة من قصص الشتاء » بصورة خبيثة صفراء خالية من الوان العطف والسماحة والحشمة . ويعجبنا بل يسحرنا في رواية « اوتلو » الشهيرة . تلك الرواية التي تستنشق الغيرة فيها انقى هوا ، البحار والجبال . وما فادى الزنجي الا بي « اوتلو » « بدره اثمن من قبيلة كبر » الا كرها وفي سبيل عرضه وشرفه . بعد ان افرغ الخائن يعقوب كل سمه في قلب من اخلص له الوداد . واذا ذكرنا الانتقام نشاهده في افطع واوحش هيئاته في « تيتوس اندرانيكوس » وفي اشرف واسمى مظاهره في رواية الليلة . وفي هذه المقارنة تظهر عظمة الشاعر الذي يسقط الى اعماق اغوار الحياة فيستخرج منها درر الشعر والفلسفة . ويرتقي الى اعلى السماكين فيجئنا بكواكب من الحكمة السامية والحقيقة الالهية . هذه ست روايات ذكرت بها موجزاً لا مثل مقدرة الشاعر واتساع نطاق افكاره وتصوراته وفلسفته وشعوره . فمن « كريسيدا » الى « جوليت » ومن « أندرانيكوس » الى « هملت » ومن « بوليكسين » الى « اوتلو » ننتقل من جحيم الحب الى سمائه . ومن ادغال الانتقام الى ذرواته . ومن اكواخ الغيرة الى قصورها . وقد تجتمع اسمى مظاهر هذه العواطف كلها في دور

(هملت) . لذلك هي اعظم الروايات التي تمثل على المسارح اليوم .
هي رواية منقطعة النظير فريدة في بابها وجلباها . فالضمير
والفلسفة فيها يمتزجان فيتماوجان بين التردد والاقدام . وفيها الدقائق
والحقائق تسيل حياً . فتتلون غضباً فتهبج انتقاماً . وفيها من
الشعر والتصور والفصاحة ما لا يجتمع مثله في رواية واحدة
غيره من الشعراء . وفيها . وهذا اهم ما فيها للممثلين . غوامض
اطوار (هملت) وشذوذاته . فان دور (هملت) للممثلين هو
كالنور للفراشة . وندر في اوروبا واميركا من لم يحرق جنجيه من
الممثلين الشهيرين في بادي . امره ولتأكدوا اهمية هذه الرواية
في عالمي الشعر والتمثيل اقول ان من مائة ممثل في انكلترا
واميركا لا يحسن تمثيل هذا الدور العظيم اكثر من عشرة ممثلين .
وكل واحد من هؤلاء . يمثل الدور بطريقة تختلف عن طريقة
سواه . وذلك لان المؤلف اكثر فيه من اوابد الفلسفة . وغوامض
الحكمة . واسرار المعاني البديعة . ما يحتمل التفسير والتأويل
العديدة . لا اقول هذا لاثبط من عزم هؤلاء الشبان النشيطين .
فاني اكبر همتهم واثني على اقدامهم . وارجو الا يقفوا في درس
هذه الصناعة الجليلة واتقانها عند حد تصفيق الناس واستحسانهم .
فقد يضر المديح بالشاعر والممثل اكثر من نقد الناقدين وتحامل
المتعنتين .

وان بينكم ولا شك كثيرين ممن سافروا الى اوروبا وشاهدوا

فيها تمثيل الروايات . ولكنني لا اظن ان احداً منكم دخل العالم الكائن وراء الستار هناك . فان المسرح . بادواته وعجلاته وانواره واخشابه واسراره وممثليه وجدران الورق والنسيج فيه . لعالم آخر لمن يتسنى له الدخول اليه .

اذكر لما كنت امثل دوراً صغيراً في هذه الرواية مع احد الممثلين الكبار في الولايات المتحدة اثني دهشت اول ليلة من امر الشبح فيها وكيفية ظهوره . فلما قال « برناردو » (ها هو ها هو) رأيت من كان يمثل هذا الدور يتخطى تحت الارض . اي تحت المسرح فسألت احد الممثلين : هلاً يخرج لتشاهده الناس ؟ فقال : بل هم يشاهدونه الان . فقلت : وكيف ذلك ؟ فاشار اذ ذاك الى مرآة طويلة في مؤخر المسرح وقال : ترى الذي يمثل دور الروح واقفاً تحت المسرح امام المرآة فينعكس خياله فيها فيخيل للناظرين انه شبح حقيقي واقف بين الارض والسماء . واذا تكلم فصوته من تحت المسرح اقرب الى حقيقة حاله . فانه اشبه بصوت خارج من القبر . وعند ما ينتهي من كلامه لا يخرج كالأحياء ماشياً بل يتحول الممثل من امام المرآة فيخيل للناس ان الروح طار في الفضاء . تروا اذاً الى اي حد من الاتقان والتفنن ترتقي هذه الصناعة هناك .

وقد جاءني منذ اسابيع مجلة انكليزية موضوعة للتمثيل والممثلين قرأت فيها ان ابن السيدة إلن ترى وهي كسارا برنار

عند الانكليز طبع رواية (هملت) على حدة في خمس مجلدات ضخمة طبعة فريدة في بابها فنشر فيها صور اشهر من اجاد في تمثيل هذا الدور من الممثلين من ايام شكسبير حتى يومنا . ورسوم الثياب ووصفها في زمن (هملت) مع المواعين والاشياء التي تستخدم على المسرح اثناء التمثيل . وفيها ايضاً وصف المشاهد والمناظر وحركات الممثلين وسكناتهم كلها وكيفية القائهم مسندة الى تقاليد تكاد تكون مقدسة عند عشاق هذا الفن واربابه . وتباع النسخة من هذه الطبعة من رواية (هملت) بخمسة عشر ذهباً انكليزياً . فتأملوا !

اذكر هذه لتقدروا هذه الرواية حق قدرها . فانكم . مهما تعددت مشاهدتكم اياها . لترون فيها كل مرة شيئاً جديداً من رابع الحكمة وبديع المعاني وجميل الخيال . وقد يخطر في بال البعض منك ان كيف تكون يا ترى تأثيرات مثل هذا المسرح ومثل هؤلاء الممثلين في نفس من مثل على مسارح اميركا وشاهد هذا الفن في ارقى مظاهره وعرف شيئاً من اسراره وخواياه . اما الممثلون فاني وان كنت لا استصوب هجومهم دفعة واحدة على روايات شكسبير وبالاخص اعظمها فاني اُكبر همتهم كما قلت . وفني على نش طهم وارجو ان يتوقفوا في سعيهم واجتهادهم ودرسهم لتواصل الى شيء راق من هذا الفن . واما المسرح او المنهى او المنعب او

فيها تمثيل الروايات . ولكنني لا اظن ان احداً منكم دخل العالم الكائن وراء الستار هناك . فان المسرح . بادواته وعجلاته وانواره واخشابه واسراره وممثليه وجدران الورق والنسيج فيه . لعالم آخر لمن يتسنى له الدخول اليه .

اذكر لما كنت امثل دوراً صغيراً في هذه الرواية مع احد الممثلين الكبار في الولايات المتحدة اتني دهشت اول ليلة من امر الشبح فيها وكيفية ظهوره . فلما قال « برناردو » (ها هو ها هو) رأيت من كان يمثل هذا الدور يتخطى تحت الارض . اي تحت المسرح فسألت احد الممثلين : هلاً يخرج لتشاهده الناس ؟ فقال : بل هم يشاهدونه الان . فقلت : وكيف ذلك ؟ فاشار اذ ذاك الى مرآة طويلة في مؤخر المسرح وقال : ترى الذي يمثل دور الروح واقفاً تحت المسرح امام المرآة فينعكس خياله فيها فيخيل للناظرين انه شبح حقيقي واقف بين الارض والسماء . واذا تكلم فصوته من تحت المسرح اقرب الى حقيقة حاله . فانه اشبه بصوت خارج من القبر . وعند ما ينتهي من كلامه لا يخرج كالأحياء ماشياً بل يتحول الممثل من امام المرآة فيخيل للناس ان الروح طار في الفضاء . تروا اذاً الى اي حد من الاتقان والتفنن ترتقي هذه الصناعة هناك .

وقد جاءني منذ اسابيع مجلة انكليزية موضوعة للتمثيل والممثلين قرأت فيها ان ابن السيدة إلن ترى وهي كسارا برنار

عند الانكليز طبع رواية (هملت) على حدة في خمس مجلدات ضخمة طبعة فريدة في بابها فنشر فيها صور اشهر من اجاد في تمثيل هذا الدور من الممثلين من ايام شكسبير حتى يومنا . ورسوم الثياب ووصفها في زمن (هملت) مع المواعين والاشياء التي تستخدم على المسرح اثناء التمثيل . وفيها ايضاً وصف المشاهد والمناظر وحركات الممثلين وسكناتهم كلها وكيفية القائهم مسندةً الى تقاليد تكاد تكون مقدسة عند عشاق هذا الفن واربابه . وتباع النسخة من هذه الطبعة من رواية (هملت) بخمسة عشر ذهباً انكليزياً . فتأملوا !

اذكر هذه لتقدروا هذه الرواية حق قدرها . فانكم . مهما تعددت مشاهدتكم اياها . اترون فيها كل مرة شيئاً جديداً من رائع الحكمة وبديع المعاني وجميل الخيال .

وقد يخاطر في بال البعض منكم ان كيف تكون ياترى تأثيرات مثل هذا المسرح وهشل هولاء الممثلين في نفس من مثل على مسارح اميركا وشاهد هذا الفن في ارقى مظاهره وعرف شيئاً من اسراره وخبائاه . اما الممثلون فاني وان كنت لا استصوب هجومهم دفعة واحدة على روايات شكسبير وبالاخص اعظمها فاني اذكر همتهم كما قلت . وثنيت على نشاطهم وارجو ان يتوقفوا في سعيهم واجتهادهم ودرسيم المتواصل الى شيء راق من هذا الفن . واما المسرح او الملهى او الملاعب او

التياترو او بالحري هذه الاخشاب المسندة التي تدعى تياترو فانها
تذكرني بايام شكسبير لما كان هو نفسه يمثل ادواراً في رواياته .
فان فن التمثيل هناك ولد في مثل هذا المهذ الحقير . ولا
عيب ولا عار في ذلك .

ولا بأس بذكر شيء من سيرة هذا النابغة العظيم فان فيها
عبرة لمن اعتبر . في ايامه اي منذ ثلاثماية سنة كانت لوندرا
شبيهة ببيروت اليوم من حيث اسواقها وابنتها وملاهيها . ولم
يكن فيها عربات ومركبات . بل كانت شوارعها دائماً كشوارع
مدينتنا يوم الاعتصاب . فكان الناس يجيئون التياترو راكين
الجيل فافتضى لذلك وجود اولاد امام الباب يستلمون هذه الجياد
فيحفظونها لاصحابها الى ان تنتهي الرواية . ووليم شكسبير
ايها السادة كان من هؤلاء الغلمان . ولكنه عمل عمله بنهاة
وامانة واخلاص حتى اصبح بعد قليل زعيم الساسة وسيدهم .
فكان الناس عند وصولهم الى التياترو لا ينادون الا شكسبير
فيجيبهم هذا ويجيبهم ذاك قائلاً انا ياسيدي من رجال شكسبير .
وكذلك ترى الرجل العظيم فائزاً مقدماً في اول عمل باشره . نراه
فائزاً لانه اتقن العمل وثابر على الصدق والامانة فيه . وقد كان
ارتقاءه ابهى واسرع من فوزه . صعد السانس الى المسرح واخذ يمثل
الادوار الصغيرة الى ان استيقظت في قلبه ربة الشعر . فطفق
ينظم الروايات ويمثل فيها حتى آخر ايامه .

قلت لكم ان لوندرا منذ ثلاثماية سنة كانت من بعض الاوجه مثل بيروت . وكان فن التمثيل فيها كما هو اليوم عندنا . وكانت التياترو الخاصة بشكسبير وشركائه شبيهة بهذه . فالحالة الاجتماعية التي الف فيها هذا العبقري رواياته كانت كحالتنا اليوم دون تصورات وافكاره ودون المثل الاعلى في الفنون .

فهل كتب الشاعر ما يلائم ضبايع قومه وامياهم في تلك الايام ؟ هل راعى خواطر شعب لوندرا منذ ثلاثماية سنة ؟ فانه لو فعل ذلك لما كنا نقرأ رواياته ونمثلها اليوم . بل هو الف هذه الروايات لكل جيل ولكل زمان . الف رواياته والحقيقة آخذة بضميره . وربة الشعر تلي على فواده . والحكمة تنير زوايا قلبه ونفسه . الف رواياته ولسان حاله يقول : ان لم يقدرها ابناؤنا اليوم حق قدرها سيفعل ان شاء الله ابناؤنا . والمستقبل . وهذه من نبوات الشعراء . فالسابعة ياسادتي يتقن أي عمل اتاه بشرط ان يكون قلبه مائلاً الى ذلك العمل . ومن مميزات شكسبير في صعوده من احقر الاشغال الى المهنة التي تتصل بالالهة اسبابها انه كان يفرغ قلبه ودماعه في قلب عمله . وان حياة هذا العبقري لشبيهة بتمثال حي لما جاء في رواياته . فانه ارتقى السام من اوطى الدرجات حتى اعلاها ووقف هنيهة في كل منها ليفكر بالحكمة التي فوقها والحكمة التي تحتها .

ان الفوز المبين اذاً لني اتقان العمل مهما كان . ان الاتقان

في الفلاحة كان او في النظم او في التمثيل هو اساس كل ما يدوم طويلاً من الصنائع والفنون . ونحن الشرقيين مفتقرون جداً الى الثبات الذي يتغذى به الاتقان . فاننا لا نتقن شيئاً ولا نثبت في شيء . بل ترانا نياس قبل ان نتمم عملاً . ونبغى فوق ذلك الاستحسان والتقريظ . فعماسا اذا ان نتمثل بشيء من حياة هذا العبقري الانكليزي الذي اتقن عمله سائساً . واتقنه ممثلاً . واتقنه شاعراً .



حول المساواة^(١)

سيداتي وسادتي

عندما كتبت هذه الرواية الصغيرة لم يخطر في بالي امر تمثيلها . وقد الفتها لغرضين غرض ادبي وغرض سياسي . فالغرض الادبي ظاهر للألباء . من خلال الخيال . والغرض السياسي نقطة محوره . ومهما كان من امر الرواية فما هي الا وقفة امام الباب الذي لا بد ان يدخله الادباء بعد حين . فقد عفنا الروايات المترجمة التي قلما تنطبق على حالنا وقد حان لنا ان نضع تاريخ الامم الشرقية وبالاخص تاريخنا على المسرح ليقتفي الناس اثار اجدادنا الحسنة ويتحاموا منها السيئة . ومن اعجزان نتهافت على موائد الافرنج وعندنا في تواريننا العربية وفي حياتنا الاجتماعية من الحوادث والعبر ما كان يكفي (ساردو) و(روستان) و(إبسن) خمسين عاماً لو تفرغوا لدرسها ووضعها في قالب التمثيل . وما روايتي هذه سوى وقفة كما قلت امام باب الموضوع . وبما انني اشتغل اليوم في نظم بعض حوادث تاريخ العرب لتمثل في انكلترا او اميركا او دولو يهتدي بعض اخواني من الادباء الى شي من هذه الحوادث المهمة فيفرغونها في قالب تمثيلي على طريقة

(١) القيت اثناء تمثيل رواية السجناء او عبد الحميد في الانبي للعرض

الاولى في المسرح الجديد ببيروت سنة ١٩٠٩

قريبة بقدر الامكان من كالات هذا الفن .
 اما الغاية السياسية من الرواية فلا شك انها ظهرت لاكثر كم
 وتدبرتموها . وما عبد الحميد فيها سوى واسطة لظهار الحقيقة
 المؤلمة التي طالما شغلت المفكرين .

من الالفاظ الساحرة التي تجري على السنة الخطباء . في هذه الايام
 لفظة المساواة . والمساواة ايضاً هي محور الفكرة السياسية في
 الرواية . ولكن بين ما ارتأيه في هذا الموضوع وما يرتثيه غيري
 بوناً شاسعاً . فالمساواة لفظة طالما تحمس لها الشعوب في ما مضى
 من التاريخ ووجدت فيها الامم خلاصها الى حين . وان كان في
 تاريخ الرومان او الفرنسيين او الاميركان فان هي الا فترة مرت
 فاضرمت في الشعوب هوساً ابعدهم عن الحقائق الطبيعية
 والاجتماعية واعادهم اليها بعد حين . والتاريخ شاهد على ما اقول
 ولكن الوقت لا يسمح الان في استطلاع شواهد فترى كيف
 خابت آمال الرومان والفرنسيين والاميركان في عقيدة زال شغفهم
 بها بعد ان وضعوها في حيز العمل .

على انني اصرح امامكم الان انني لست من المعتقدين بان
 الناس ولدوا متساوين كما جاء في دستور الولايات المتحدة .
 فالناس لا يولدون متساوين لا في القوى العقلية ولا الجسدية
 ولا الروحية . وهذه حقيقة لا حاجة للاسهاب فيها . وانما الناس
 متساوون اسماً امام الشرع . اما فعلاً فهم في البلاد التي تدعى

مهد المساواة كاخوانهم في البلاد التي كانت في الماضي قبرها .
 فالاميركي والعثماني شبيهان من هذا القبيل . وذو النفوذ في
 الامتين يخنق المساواة بنفوذه . وذو المال بماله . وذو السيادة
 بسيادته . وذو العقل بعقله . وذو القوة بقوته . ومهما تحمسنا
 وبالغنا في القول ينبغي ان تكون الحقيقة محجتنا في كل حال .
 الحقيقة ياسادتي هي ان لا حقيقة للمساواة في البشر اليوم .
 والذي يمكننا ان نصل اليه بعد طويل الجهد والثبات في مضمار
 الارتقاء هو ان يعرف كل امرىء مقامه ويجازى كل امرىء على
 عمله وهذه في نظري هي المساواة الحقيقية . ليجازى كل امرىء
 على عمله بعدل وانصاف وانا الكفيل بان الناس لا تحلم بعدئذ
 بالمساواة . اذما الفائدة للفاعل ياترى من معرفته انه وسيده
 متساويان اذا كان سيده لا يجازيه على عمله بعدل وانصاف ! .
 المساواة الحقيقية اذا هي ان يجازى كل على عمله . ان يجازى
 المجرم على جرمه . والفاعل على عرق جبينه . والعالم على علمه .
 والذي على ذكائه الذي يظهر في اعماله . ورب الفنون على عرائس
 صناعته . والشاعر على نفائس شعره . فالمجرم اذا كان من المتشردين
 او من السلاطين ينبغي ان يكون في نظر الشرع واحداً . وفي
 نظر القضاة واحداً . وفي نظر السجنان واحداً . اي ان الحقيقة
 تطلب شريعة واحدة . وميزاناً للعدل واحداً . وسجناً واحداً . لمن
 ساوت بينهم الجرائم والاثام . ولا فرق بين الصعلوك من هذه

الوجهة والامير وبين الفقير والغني . اذكر لما كنت في الولايات المتحدة ان المحكمة العليا حكمت مرة على احد ارباب الاحتكار هناك بالحبس ستة اشهر لخرقه نظام الحكومة المختص بالشركات الاحتكارية . فزج بالسجن كبقية المذنبين ولكنه لم يعيش هناك كما عاش اخوانه السجناء . فقد اختصته الحكومة بثلاث غرف فرشها من ماله بالطنافس والرياش . وأذنت لاحد المطاعم ان يقدم له طعامه كل يوم في الاوقات المعينة . وكان اصحابه وعماله يزورونه كما لو كان في بيته او في مكتبه . فما قولكم بهذا العدل في ارض تدعى مهد الحرية والمساواة . افلا ترون ان بين حال عبد الحميد اليوم وحال ملك الاحتكار الاميركي بعض الشبه فالمال الذي تدفعه الامة اليوم لاعاشة السلطان المخلوع هو ما يحق لكل المجرمين في البلاد ان يطالبوها بجزء منه . هذا ما ندعوه المساواة امام الشريعة وهذه هي المحجة التي لم نزل بعبدين عنها . اما المساواة في الهيئة الاجتماعية فالعقدة فيها اشد وامنع . وان عقدة عقدها الله لا يجلبها الا هو . ليعمل كل منا عمله باخلاص واثقان . ليعرف كل منا مقامه . ليجاز كل منا عمله على اعمالهم بعدل وانصاف . لنكن احراراً بمعنى الكلمة الحقيقي فنصبح متساوين فضلاً واثباتاً في عين الله . - قلت في خطابي في زحله كلمة عن الذين يتلبسون بالحرية ويفاخرون الناس بانهم من الاحرار وذكرت على سبيل المجاز ببيع البعسل او بالحري من لا

يعرف كنه الحرية والمساواة واصبح يجتمع اليوم والاحرار
الحقيقيين في ناد واحد . فقام احد الخطباء يعترض على تحقيري
الشعب وعبثي بعقيدة المساواة المقدسة . وهو لا . الناس يحاولون
تعزيز عقيدة لم يعززها الله وما عززتها الطبيعة . فقال كيف لا
يحق لبياع البصل مثلاً ان يكون من الاحرار وكيف لا يحق
له ان يجتمع وسيده الامير في ناد واحد . لا ياسادتي اذا كان بياع
البصل او الامير نفسه يبيع حرите ببصلة فهو من العبيد الذين
لا يحررهم الا الله . اذا ظل المرء حراً ما دامت حرите لا تضر
بمصلحته او بمنصبه او بنفوذه فلا الدستور ولا الثورة ولا المصلحون
يستطيعون ان يرفعوا عن نفسه سلاسل العبودية .



الشعب والسياسيون^(١)

ايها السادة

ان لهذه المدينة مزينة طبيعية جميلة ما رأيت مثلها في مدن العالم الكبرى التي زرتها واقمت فيها . وهذه المزينة المبهجة تظهر في هذا الفصل من السنة في اجمل معانيها فتسير مع النسيم في الليل فتنسي السائر حفر الاسواق واوحالها . نعم ان اجمل ما في بيروت جوائنها وان نفحات ازهار الجنائن تسكرني وتحزنني معاً . فقد طالما سألت نفسي وانا ساثر ليلاً في شوارع المدينة - متى يا ترى تنتشر مثل هذه الروائح الشذية في ادينا وادياننا واخلاقنا ومبادئ زعمائنا ؟ متى يا ترى تصير ارض سوريا صافية كسمائها ؟ متى يا ترى تصير قلوب ابناء سوريا نقية كهوائها ؟ متى يا ترى تصير حكومة هذه البلاد صالحة كانبياؤها ؟ سوالات يطرحها الرجاء على اليأس بل النور على الظلمة . سوالات طالما رددتها نفسي فكنت كن يقلب جذوة في الرماد كلما حركتها صغر حجمها فتسمى اخيراً رماداً

سوالات اذا سألتها علم العالمين يجهلهم يجيب عليها جهل من ادعى العرفان . سوالات اذا سألتها ازهار الحب والتساهل والاخاء نبت حولها شوك التعصب والنزاع والخصومات .

(١) من خطبة في الشعب وزعمائه

ولكنني لا اياس من كل ما هو جار اليوم . انا لا اتشام
 باخبار الاستانة المكدره . فان الامة هي كالام ساعة الولادة .
 الامة الجديدة كالطفل تولد بالمذاب والالام .

اعذروني ايها السادة اذا خالفت هذه الليلة رأبي في امر
 الخطابة خلال الفصول . فاني وان قلت بابطال هذه العادة اعلم
 جيداً ان ذلك غير ممكن قبل ان يصير عندنا دار خصوصية
 للاجتماعات العمومية .

وإذا كان الخلط بين الخطابة والتمثيل اليوم لازماً فالاشارة
 الى ان الطلاق كافل سلامة الاثين لازمة ايضاً .
 وبعد هذا الاعتذار ماذا عساني اقول .

ان قلت كلمة في الحالة الحاضرة اخشى ان تظهروا استحسانكم
 باطلاق الرصاص فلذلك لا اقولها . ان الصحافيين كثيرون وكلهم
 في القول يتاجرون . بل كلهم من الاماجد الكرام كما يقول
 انطونيوس في جنازة القيصر . والذي يقوله هو "لا . الاحرار
 الافاضل لا يتجاسر ان يقوله هذا الفقير . الذي يقوله المسدس
 والخنجر لا يقوله اليوم القلم والمبر . الذي تقوله الحماسة الوطنية
 لا تردده دائماً الحكمة . الذي يقوله انصار الامة لا يقوله انصار
 الحقيقة . واني اؤكد لكم ايها السادة ان لسان الحال اليوم افصح
 من لسان الاتحاد . ولسان التمهقر اطول من لسان الترقى . وبلاء
 بابل في السنتها . ولكن هذه البلبلة لا تدوم . وسينطق غداً

لسان آخر هو لسان القوة والحكمة فيردد صدى كلماته لسان
الحال ولسان الاتحاد ولسان الترقى ولسان التقهر ايضاً . وان غداً
لناظره قريب .

واما الان فحمة للانسانية ارى من الواجب ان نلفت
انظار زعماء الفوضيين في اوروبا الى حالتنا المبهجة المفيدة فيبعثوا
بوفد من قبلهم الى بيروت ليتعلموا فيها كيف تكون الفوضى .
ولا بأس بالفوضى اذا علمتنا شيئاً واحداً وهو انه لا يثبت في
العالم والناس الا الانقلاب . لا بأس بالفوضى اذا تعلم الشعب
في مدرستها ان يتقي زعماءه واسياده . فان الزعماء الذين يغرون
الشعب اليوم على الصحافة حياً بالامة يغرونه غداً على الامة حياً
بالصحافة . عفواً سادتي . قد جاملت من حيث لا اقصد المجاملة
فان الزعماء السياسيين يثيرون خواطر الشعب لا حياً بالصحافة
ولا حياً بالامة بل حياً بانفسهم الكريمة وبمطامعهم السياسية
الشريفة . فاتق ايها الشعب الزعماء ولا تكون في ايديهم آلة صماء .
واتقوا ايها الزعماء الشعب فانكم اذا اغريتموه اليوم على احد
زملائكم يقوم غداً من يغريه عليكم . لا يثبت الا الانقلاب .
اذكروا هذا ايها الثابتون في القلب

وقد قيل ان صوت الله في صوت الجماعات . وكم هو ياترى
عدد العثمانيين الذين لا يقفون مع الواقف ولا يتزلفون الى القوي .
قالشعب اليوم واقف . الشعب اليوم قوي . ولكن الحق يقف

فوق كل واقف . الحق اقوى من كل قوة بشرية .
 فاذا قال السياسيون ان صوت الله في صوت الشعب يقولون
 ذلك يوم يكون الشعب خادماً ماآربهم السياسية . ويوم ينقلب
 الشعب تنقلب ولا شك الآية . يوم تصرخ الجماعات فلتسقط
 الصحافة الحرة تقول الحكومة المسئولة ان هذا لصوت الله . ولا
 تكاد تنتهي من تهليلها حتى تصرخ الجماعات فلتسقط الحكومة ا
 فيقول اذ ذاك الحكام انه لصوت ابليس . والحقيقة ايها السادة ان
 ابليس بريء من هذا الشعب وان الله بعيد عنه . الحق يقال ان
 صوت الشعب هو صوت ابي براقش لا صوت ابليس ولا
 صوت الله . الحق يقال ان ابا براقش هو معبود الشعب
 ومعبود السياسيين .

تبارك الشعب وتباركت صبغاته السياسية . تبارك السياسيون
 وتباركت نزواتهم الوطنية .



في وصف بيروت

ايها البيروتيون

اقت في هذه البلاد بلادنا ست سنوات ولم استطع قبل
الآن ان اقول في بيروت كلمة حق يرضاها قاب شغف بحب
بلادها ولا ينكرها عقل شغف بحب الحقيقة . نظرت الى هذه
المدينة بعين رأيت مدن اوروبا واميركا فاستصغرتها وندبت حظها
ثم نظرت اليها بعين شاهدت غيرها من مدن سوريا فاحببتها
واكبرت شأنها . وانا الان ناظر اليها بالعينين فاصفها وانصفها .
بيروت ام البلاد السورية وأمة البلاد السورية . اميرة المدن
الاسيوية واجيرة المدن الاسيوية . بيروت حسنة من حسنات
التمدن وآفة من آفاته . بيروت لؤلؤة شرقية في صيغة من
النحاس غربية . هي خلخال في رجل سلطنة المشرق عند الصباح .
واسوار في معصم ربة المغرب عند الغروب . هي درة في احوال
تئن فوقها الكهربا . هي مرجانة على ساحل اختلط تبره برماله
ولجينه باحواله . ساحل النغولة مهد ام المدن السورية وعرشها .
فم الاتون بيروت . وافق النور بيروت . ومطلع الظلمة بيروت .
عروس الحرية هي وعجوز الحرية . يوماً تتهادى تحت علم الوطن
عفة وكبراً ويوماً تتوكأ على عصاها كيداً ومكراً . يوماً تلبس
الرعاة العتاة اكليلاً من الازهار ويوماً تقبل منهم اكليلاً من

الشوك . تصعر يوماً خدّها للظالم وامام سدته تعفر يوماً وجهها .
بيروت منبر الدستور ومشنقته . بيروت حناء النظام وبيروت
صخابة الفوضى .

مدينة المدن السورية بيروت . منبت الياسمين والقلام .
مغرس الورد والشوكران . القراص فيها يرفع رأسه عزّة تحت
ازاهر الليمون . والعليق يسرح ويمرح في ظلال النخيل . مدينة
الدماء . مدينة المدن . مدينة الخلسة والرجاسة . اخت اورشليم .
روحها تن في الازقة . نفسها تحسرج في المجاري . قلبها يغرد في
البساتين . عينها تدمع في دوائر الحكومة . جسمها يذوب في
الموبقات . وعقلها يُدق على سندان التفريق في المدارس . بيروت
احدى وصيفات باريس . هي قمر ينعكس فيه نور المغرب فيضي .
المشرق وتنعكس فيه ايضاً ظلمة الغرب فتزيد الشرق ظلاماً .
بيروت منبت العلوم ومغرس الخرافات . هي حقل خصب التربة
تررع فيه اوروبا قمحها وزوانها ووردها وقلامها . ومع ذلك نراها
سائرة الى الامام ساهرة صابرة . اذا اقبلت سوريا فبيروت امامها
وان ادبرت فبيروت وراها . اذا كانت اليوم كاذار من السنة
تتراوح في رعداها وبرقها بين الظلمة والنور غداً تصير كايار بل
كتموز . كايار بازهارها . كتموز بثمارها . اذا كانت اليوم اسيرة
شياطين التفريق تصبح غداً ربة الالفه والاخاء . اذا كانت اليوم
عرش التعصب الديني فهي غداً قبره .

مدينة المدن السورية بيروت واثمها مثل مجدها كلاهما عظيم .
 اذا بكث هاج بكاوها بكاء الامة . اذا غردت رددت انغامها
 بلابل حلب وشحارير الشام وحساسين لبنان وحمم الجليل . اذا
 وردت بحيرة الاصلاح « ورد الفرات زثيرها والنيلا » . واذا
 افسدت افسدت بناتها في السواحل وعلى شواطئ العاصي والاولي
 والاردن وبردى . كلمة باطل تنطق بها بيروت تسي حجة في
 دمشق . كلمة حق تصدع بها بيروت تروي غليل القرى الظمّانة
 وتبعث في مدن السواحل والسهول روح الجهاد .

ام المدن السورية هي وعجوز المدن السورية . تعلم بناتها
 الفضيلة يوماً ويوماً تعلمهن الرذيلة . تحمل اليهن نوراً وتحمل اليهن
 سماً . اثمها مثل مجدها كلاهما عظيم . واعظم من الاثنين واجب
 فرضه الله على الامهات . احسني القدوة يا بيروت يحسن بناتك
 الاقتداء . في المروج والجبال وفي السواحل والسهول بناتك
 يستقين من ينابيع علمك وادبك . من مدارسك من صحافتك
 من منابرک من مطابعك . فصفي مياهاً تسقينها بناتك . اخفري
 السبل . صوني المساهل . تعهدي المسارب . اقطعي يد كل اثم
 يشتغل اليوم في تمكيرها او تخريبها او تسميمها . اقطعي الايادي
 التي تحمل اليها سراً فضول الاديان واوحال التعصب واوساخ
 سخافات الادب والسياسة . طهري ينابيعك . ارحمي بنيك
 وبناتك .

أشهد ان لا نور ولا دخان ولا وحول في سوريا اليوم غير ما
 كان مصدره بيروت . وأشهد ان بيروت وجه سوريا وان
 الهوتنتوتي في هذا الزمان يغسل وجهه . بيروت قلب سوريا .
 والعلم يقضي بان يكون العقل كالقلب والجسم نظيفاً نقياً ولكن
 المدينة التي تدعى درة في تاج آل عثمان هي درة في احوال وغبار
 تئن فوقها وتحتها الكهربا . وتبمس حولها حباب الادبا .

احوال واقذار وغبار في اسواق المدينة . وفي آدابها وفي
 سياستها وفي اديانها . ودرة العلم ودرة الدين ودرة تاج آل عثمان
 في هذه الاحوال والاقذار غائصات ضائعات . وماذا يزيل الاحوال
 والاقذار والغبار . لا الصحافة ولا قرص البلدية ولا قصائد
 الشعراء ولا كلماتي تزيلها . هذه الاقذار من فضول الاعصر
 والاجيال ولا يزيلها ابدأ سرمداً غير التربية الحقة والتهذيب
 الصحيح . تربية اساسها الشجاعة والحمية والصدق والنظافة .
 وتهذيب اساسه النزاهة والامانة والاقدام وحب العدل والوطن .
 متى تأصلت هذه الفضائل في الرعاة وفي الرعية . وفي السائدين
 والمسودين . تصطلح جادات المدينة وتستقيم جادات الادب والدين
 والسياسة . اصلحوا الحياة تصلحوا الحكومة . اصلحوا الحياة
 تصلحوا المدينة .

في لبنان

اخواني . ابناء وطني .

اذا كان في حضوري حفلة هذه الجمعية ما يسر كم وفي كلماتي ما يفيدكم فالفضل في ذلك لرسول الجمعية الي . جاءني هذا الرسول الاسبوع الماضي فذكرني بعد ان قص قصته بمخبري الجرائد الامير كية . باولئك الشبان الاقوياء الذين يتسقطون حتى من السماء الاخبار . وينالون بغياتهم بالجد والثبات ولو حالت دونها الاقدار . ورسول الجمعية نال بغيته مني بالجد والثبات . طلبني في محال عديدة بالمدينة فما وجدني . سأل عني بعض الاصحاب فثبطوا من همته . علم اني ساخط في بيروت خطبتي الاخيرة واتأهب للسفر وما كان ذلك ليوقفه عن سعيه . عض على نواجذه وراح وجاء باحثاً طالباً حتى لقيني فحاصرني واستولى علي . اعجبني من الشاب نشاطه وجدده وثباته . فاحببت ان انوه بها في هذا المقام . وحبذا هذه المزايا الحميدة في شباننا بل في كهولنا وفي نساتنا . حبذا العزم في الاعمال . والثبات في الاعمال . والاخلاص في الاعمال . فلا التربية في بيوتنا نحن السوريين ولا التهذيب في مدارسنا يغرس فينا مثل هذه الاخلاق

(١) خطبة القايت في جمعية الاجتهاد الروحي في برمانا لبنان في ١٤ ايار

الطيبة • مثل هذا العزم والجد والاقدام • الشاب الذي نوهت به من متخرجي الكلية والمزايا التي اعجب بها انما هي من محاسن الاخلاق الاميركية • وحبذا لو تخلقنا بمثل هذه الاخلاق فنأخذ عن اصحابنا الاميركان والانكليز امثال العزم والجد والاقدام ونترك لهم عبادة المال والتكالب في سبيل الاثراء •

فكم من خوار هلوع اذا قامت في وجهه عقبة واحدة يعرض عن غرضه ويعود الى خموله خائباً • وكم من رسول لفساد في خلقه وضعف في عزيمته يخدع مرسله ويخونه • وكم من مأمور يركب الى غايته مطية الغش والتلبيس ويطلي عُقد الامور بالاكاذيب ويدور حول العقبات • مثل كديش الناعورة فلا هو يذلل العقبات ولا هي تعززه • الاخلاص في الاعمال • والامانة في الاعمال • والجد والثبات في الاعمال • هذا ما انصح به لاخواني ابناؤ وطني • فالجد يدني كل امر شاسع والجد يفتح كل باب مغلق • وان من يمد يده الى السماء راغباً عازماً جاداً متشوقاً لتدنو منه كواكب السماء واقارها •

ولكن الطبيعة تنفر من الالحاح ونواميسها تكره العجلة • وقلما نرى نحن السوريين ما لا يعاكس الطبيعة ونظام الاشياء • اذا شاقنا امر طلبناه كالاطفال ضاجين ملحين صارخين صاخبين • مئات السنين يزيد ان يحشرها الله من اجلنا في مدة صغيرة • يزيد ان ينير من اجلنا الشمس في الليل والقمر في النهار • يزيد

ان يصلح شوؤونا ونحن اما ناثمون واما صاخبون • ولا الصخب
 وایم الله ولا النوم • لا العویسل والفوضى ولا التلبط والقنوط
 تصلح الشوؤون •

اکمكة تريد يابني • اصبر تملها • واما هذا التلبط منك فلا
 يفيد • وهذا الصراخ لا ينفعك • بمثل هذا الكلام تخاطب الام
 ابنها اللجوج والامة بنيتها • نريد في لبنان تهذيباً وحرية وعمراناً •
 نريد في لبنان اصلاحاً • وأيم الله لا نريد في لبنان الا الوظائف •
 اقول وحق ما اقول ان بلاء لبنان وفساد حاله لمن مصلحيه •
 مصيبة الجبل اولئك الذين يضربون على وتر الاصلاح حباً
 بالاشتهار • او خدمة لمآرب احد المفسدين الكبار • اولئك
 الذين يصطادون بشبكة التمويه والتغريز الدينار • بليسة لبنان
 اولئك الذين يزحفون على بيت الدين باسم الدستور فينصبون في
 باب السراي مشنقة الدستور • اولئك الذين يصطبغون بصبغة
 الاحرار واذ يتبوؤون كراسي السيادة يولون للحرية الادبار •
 اولئك الذين يصطبغون بصبغة الماسون يوماً ويوماً بصبغة المارونية
 فلا ماسونيين يعرفون ولا بكر كيين • مصيبة هذا الجبل العزيز
 في امثال اولئك البنائين المحترمين الذين يناهضون الاكليروس
 يوماً ويوماً يتزلفون اليه ليسلبوه النفوذ والسيادة • كنا في الماضي
 نقول ان بلأنا من الاكليروس • واما اليوم فياما احيلى
 الاكليروس الى جانب هؤلاء الذوات المصلحين • مسكين

الا كايروس اللبناي ا صرخة واحدة اوقفته . ضربة واحدة اقمده .
 وكأني بالبنائين والمصلحين يصرخون اليوم في وجهه قائلين :
 اشليح تريح . هذي هي حال الا كايروس اليوم وحال المصلحين .
 بليتنا يا اسيادي من هذه الاحزاب . من هؤلاء الزعماء
 والسياسيين العتق منهم والجدد . وما اكثر المصلحين فينا وما
 اقل الصالحين . ما اكثر الواعظين وما اقل المتعظين . عودوا الى
 بيوتكم ايها الناس فالزموها . عودوا الى انفسكم فاصلحوها .
 افسدتم باصلاحكم البلاد . اهلكتم بسياستكم الناس . اقول ولا
 اخشى لومة لائم ان كل ساسة لبنان الموقرين سواء في الضلال
 والفساد . وما اشرنا مرة الى احد . معجبين ممن اشتهروا بغير
 الضلال والفساد وكان عند رجائنا فيه . قلنا في هذا الرئيس قولاً
 جميلاً كذبه باعماله . مدحنا الزعماء الوطنيين فحبتوا في الطحين .
 ما كدنا نقول في هذا النائب ما شاء الله حتى اضطرنا ان نقول
 انا لله . كلهم في الفساد والضلال سواء . عودوا الى بيوتكم ايها
 الزعماء الاعزاء . الى حقولكم . الى املاككم . فتعهدوها بالتربية .
 اصلحوها اصلحكم الله . بارت ارض لبنان من اشتغال اصحابها
 عنها بالسياسة . غاضت مياه لبنان من اهمال الغابات فيه
 والاحراج . وسيذهب لبنان ضحية اصلاح المصلحين الذين
 يهملون بيوتهم وعيالهم واملاكهم ليصلحوا حكومة لبنان .
 اقول وحق ما اقول لو سكت الزعماء والمصلحون العتق

منهم والجدد وعادوا الى بيوتهم يحترفون لهم حرفة شريفة
 لاصطلحت عاجلاً شوئون لبنان السياسية . واما شوئون الاجتماعية
 والعمرائية فلا يصلحها غير المدارس الراقية والتربية الحقيقية .
 لا يصلح حالنا ادبياً ودينياً غير المدارس الاعدادية العلمانية الوطنية
 والتربية الاميركية الحقيقية . اما الاصلاح السياسي فلا ينفع
 كثيراً بل لا ينفع قطعاً في مثل احوالنا اليوم . وهاك ما قاله
 طومس كرليل في هذا الصدد . انا قارىء ما عربته من سديد
 حكمة هذا الفيلسوف العظيم .

« قد قيل مراراً وينبغي ان يقال ايضاً تكراراً ان كل اصلاح
 غير الاصلاح الادبي لا يجدي نفعاً . فالاصلاح السياسي مع شدة
 الحاجة اليه يحصر فعله في استئصال الاعشاب البرية كالشوكران
 القبيح السام والنباتات المشوكة التي يكثر نموها وتقل فائدتها
 ولكن الارض وقد اصبحت بعد ذلك بوراً تقبل البذور الكريمة
 كما تقبل ما قد يكون اخبث واضر مما استئصل منها . اما الاصلاح
 الادبي فهل يتحقق يا ترى رجاؤنا فيه ان لم يزد يوماً فيوماً عدد
 الرجال الصالحين فينا . اولئك الذين ترسلهم العناية الكريمة ليشوا
 روح الصلاح في الناس ليزرعوه كما تزرع الشجرة الحية بذورها .
 فالرجل الصالح انما هو قوة سريعة حية مثمرة وكذلك في كل
 زمان ومكان يكون . ونفوذها اذا تدبرناه لا يقاس لان اعماله لا
 تموت . هي ابدية لانها بنت الابدية . وقد تتحول فتنمو وتنتشر

في اشكال جديدة ولكن جوهرها الحي المحي هو واحد . فبا ايها الصارخ من خبث الزمان ولومه القائل ان ديوجن في يومنا يحتاج الى مصباحين في رابعة النهار اعلم ان لا سلطة لك على الزمان . وليس لك ان تصلح البشر - ان تنقذ عالماً منغمساً في الغش والفجور والنفاق . وانما كتب لك ان تصلح رجلاً واحداً فيه واعطيت لذلك قوة عظيمة مطلقة فانقذ هذا الرجل . اصلحه . قوم اوده . ان في اهتمامك بنفسك شيئاً بل اشياء تذكر . وحياتك واعمالك لا تكون بعدئذ باطلة . »

وكلنا هذا الرجل . وكلنا نستطيع ان نصلحه اذا سعينا وكنا ثابتين في سعينا صادقين . اما الاصلاح السياسي فهو ينقي الارض ويخصبها فقط . والاصلاح الادبي الذاتي يعطينا بذوراً صالحة تزرع منها هذه الارض المنتخبة الطيبة . واما اذا خصبناها ونقبنها وكانت بذورنا رديئة فاسدة يجي . كل اصلاح سياسي شراً من الآخر . وبأسف اخبركم ان ما في جراب بذارنا اليوم غير بذور الخنظل والقرقفان والعوسج والقراص . فاذا كانت لنا غيرة على بلادنا وكان في قلبنا حب لارضنا حقيقي نأبي ان نتعبها ونهلكها بالاصلاحات السياسية العقيمة . لنسع في تنقية البذور قبل تنقية الارض . اطرحوا الى النار جراب السياسة وما فيه غير آسفين وخذوا لكم جراباً جديداً قلائباً . ونه من بذور النفس المصلحة الجديدة . فقد اعطي كل منا كما قال كرايل قوة عظيمة مطلقة

ليصلح نفسه وكل منا يستطيع الى ذلك سبيلاً اذا سعى قليلاً .
ونصيحتي لاخواني اللبنانيين لابناء وطني المحبوب ان يبتعدوا
عن السياسة ويقربوا من الحقول . ان فلاحاً في كرمه وراة بحراثة
لاشرف من كثيرين من ذوات لبنان . ان صانعاً في معمله لاظهر
ذياً واثره نفساً من ساسة لبنان . ان حائكاً في نوله لاسلم قلباً
من مصلحي لبنان . - جبالنا المقدسة اأيهجر بنوك حقول
السكينة فيك ليتلوثوا باوساخ السياسة واوحالها ؟ ايهملون
ارضك فتصير بوراً وغاباتك فتصير صخوراً حياً بمنصب في
الحكومة يذل النفس ويفسد الحياة ؟ الى الحقول ايها السياسيون
الى الحقول . بارت اراضي جبالنا من الاهمال . تصخرت غابات
جبالنا من الاهمال . غاضت مياه جبالنا من الاهمال . اتشقون
في السياسة اخواني والمحراث ينشدكم نشيد الهناء والحبور ؟
اتمرغون في اوحال الوظائف والارض تحن اليكم حنين الام الى
اولادها ؟ اتستذلون وتستضعفون وتستعبدون في دوائر السياسة
والحقول تدعوكم اليها اتلبسكم تاج الاستقلال ؟ لتعيد اليكم شرف
الرجال . لتمتعكم بجرية الفكر والعمل والمقال ؟ الى الحقول اخواني .
الى الحقول . ليرع كل منا خويصة نفسه ليشغل كل منا عن
اصلاح الناس باصلاح شؤونه . ليتعهد ارضه واملاكه بالحرارة
والتربية فيصطلح عندئذ لبنان . ويصطلح شعب لبنان . وتصلح
حكومة لبنان .

التساهل الديني

خطبة

أُقيمت في احتفال جمعية الشبان المارونيين

ليلة ٩ شباط سنة ١٩٠٠

في نيويورك

وطبعت أولاً هناك

تقديم

هذه اول خطبة القيتها في لغتي وقد انتشرت في سوريا وه مصر واميركا
 وقرظتها الجرائد والمجلات هنا وهناك . لذلك احببت ان ابقي عبارتها على
 ما كانت عليه في الطبعة الاولى .

مقدمة الطبعة الاولى

قد طبعت هذه الخطبة لاعتقادي اننا بحاجة كلية الى
 التساهل الديني فأمل ان تصادف من المتساهلين استحساناً ومن
 المتعصبين قبولاً تكون نتيجةه الارتياح والاستحسان على ما
 ارجو فيزول اذ ذاك التعصب ويسود التساهل وتبرز بعد ذلك
 امتنا السورية الى عالم الوجود قائمة على صخرة لا تقوى عليها
 نيران الجحيم .

نيويورك في الشهر الخامس من سنة ١٩٠١

مقدمة الطبعة الثانية

وهذه عشر سنوات مضت والتساهل الديني لا يزال من
الادوية الناجعة . وفي ذلك دليل على ان داء التعصب الدفين لا
يزال متأصلاً في الصدور . وقد قال لي احد كبار الاتحاديين ان
الجمعية تود لو انتشرت هذه الخطبة في كل اقطار المملكة .
فلتكرم الجمعية اذا وترجمها الى التركية . ابدلوا « الامة
السورية » في الخطبة بالامه العثمانية ولا تخشوا اللوم والتثريب .
فان عناصر هذه الدولة كلها كالعنصر الذي عاجلته . وان ما نثن
منه نحن المسيحيين لاشد وطأة عند اخواننا المسلمين . أفيسقمنا
التعصب ويجهز علينا التمويه ؟ اتقوا الله ايها الناس . فقد صاح
بكم الاحرار الاصفياء . عودوا الى كتبكم ظناً منهم انكم تعودون الى
الحسن السمع السامي من اياتها . فغاب ظنهم . لذلك اقول ارفعوا
اعلام الوطن ولا تعودوا الى كتبكم في غير المعابد لانكم تعودتم
ان تسرعوا الى ما خط فيها من آيات فتفسرونها بما لا يقتضيه
حالتنا اليوم بل لا يجيزه . عودوا اخواني الى ضميركم . الى وجدانكم .
الى معقولكم . الى حكمة موروثه فيكم . وساعدوا هذه الدولة
الجديدة فتساعدكم . ساعدوها ايها الرؤساء والاسياد في بث روح
التساهل الديني والجنسي في الناس . وسيف والله يرفع علي شر
من سيف ارفعه على اخوان لي في الوطنية . وشر من الاثنين ايها
العثمانيون سيف يرفع علينا اجمعين . بيروت في ٦ نيسان سنة ١٩١٠

مقدمة الطبعة الثانية

وَأَشْرُّهُ مِنَ الْإِثْنِينَ سَيْفٌ يَرْفَعُ عَلَيْنَا أَجْمَعِينَ

(من مقدمة الطبعة الثانية)

والسيف اليوم والأسفاه اعلينا اجمعين . الا ان صاحب السيف غير ذاك
الذي حاول منذ خمس عشرة سنة تتركينا واستعادنا . صاحب السيف مهما
كان من امره اليوم . وكيل مسوئول - مسوئول امام شرف في تقاليد .
ومجد في تاريخه . ونبوغ في آدابه . وضير في عهده . ومع ذلك فهو لا
يساعدنا اذا كنا لا نساعد انفسنا . او لا نحسن التعاون .

والتعاون لا يكون بغير سيف بتار انقله على التعصب الخبيث الذميم .
التعصب الفظيع الاثيم . بل على التعصبات كلها جمعا . - على التعصب الديني
الكافر . والتعصب المذهبي الفاجر . والتعصب الجنسي الخوئون . والتعصب
الطائفي الملعون . وان سيقا على هذه المآثم كلها هو آية الحق . والعدل .
والاخاء .

اقول . وحقاً ما اقول . ان الخلاص في يدينا . ان الخلاص في التساهل
الديني . وفي الاتحاد الوطني المبني على الاشتراك بالمصلحة والاشترك بالرذية
اقول . وحقاً ما اقول . ان في اتحادنا صالح راعي الانتداب وصالحنا . اجل
ان اتحادنا الوطني المجرد عن كل صنعة مذهبية او طائفية ليحمل فرنسا على
احترامنا واحترام مطالبنا . وتفيد اذ ذلك وتستفيد . وتؤيد فوق ذلك تلك
المبادئ السياسية السامية التي ردهتها يوهأ الى امم لارض جمعا .

الفريكة في ٣١ ايار سنة ١٩٢٣

امين الربيعاني

التساهل الديني

ايها السيدات والسادة

لما علم بعض اصدقائي باني انتقيت موضوعاً دينياً اقيه على مسامعكم في هذه الليلة الحافلة انشر الخبر في جاليتنا السوربة واخذ كل رجل يبني عليه العلامي والقصور ويستخرج النتائج ويقدر العواقب ويفسر الموضوع بحسب مبلغ ذوقه وادراكه وهواه وقد اتفق هؤلاء المفسرون في شيء واحد وهو اني سأعرض للدين تعرضاً خبيثاً وهم ينوون توقيفي عن الخطابة لانهم للآن لم يألفوا حرية القول والانتقاد فعسى ان يصادفوا الفشل وخيبة الامل لانهم حكموا علي قبل ان يسمعوا كلامي ويتدبروا براهيني وهذا شيء يناقض الشريعة والعدل ويأباه الراي المستقيم والذوق السليم فالقاضي الذي يحكم على مجرم بالقتل قبل ان يسمع دفاعه يكون ظالماً مجرماً جاهلاً . فلا تحكموا قبل ان تسمعوا ولا تقصدوا الشر قبل ان تتبينوا شراً اكبر يستوجبه . وقد يظن البعض ان البحث في الامور الدينية متعلق بروساء الاديان فقط ومحرم على سواهم وهذا عين الضلال والغلط فالمرء لا يرى مساوئه ولا ينتقد الحرفة التي يتوقف عليها معاشه . وروساء الاديان لا يتكلمون عن الدين شيئاً مشيناً ومضراً به على مسامع الشعب ولو لم يكن منافياً العدل والاصلاح بل كل مباحثهم الفلسفية

وكل اقوالهم العلمية هي مستنتجة من مقدمة تسبق كل بحث وكل تنقيب يطبعونها في جنانهم قبل ان يقدموا على الكتابة والجدال وهي هذه . الدين تأييده واجب وتعزيزه اوجب واذا افسده الزمان ولوى فيه الالسنة بعض رؤساء الاديان فلا يعلن الفساد للشعب فاذا كانت المقدمة على هذا المنوال فهل يرجى منهم انتقاد جهري يكشف للعلمانيين ما لا يظنونه موجوداً . ان ذلك لا يكون فالرؤساء لا يرجى منهم اصلاح جهاري في الدين اذ ان ذلك يضر بمصالحهم ويضعف سلطتهم ويسقط سيادتهم . واذا سألتهموني لماذا تبحث وتتكلم في الدين وانت لست من رجاله فاجيبكم كما اجاب روسو الفيلسوف الافرنسي الشهير لما سئل عن تعرضه للبحث في السياسة وهو ليس اميراً ولا حاكماً قال : انالست اميراً ولا حاكماً ولكنني من اجل هذا كتبت فاني لو كنت اميراً او حاكماً لما اضعت الزمان بكتابة ما ينبغي ان افعل بل كنت افعله والزم السكوت . وانا لست قسيساً او مطراناً ومن اجل هذا اخطب بموضوع ديني فلو كنت قسيساً او مطراناً لاصلحت وحسنت واستغنيت عن الخطابة ولزمت السكوت فالبحث في اي موضوع كان محرم على الحيوانات العجم فقط اما الناطقة العاقلة فمن حقوقها ان تخوض عباب اي موضوع شاءت ولكن الذي اوقعني في مثل بحر من الاضطراب هو الطلب الذي طلبته مني عمدة هذه الجمعية (جمعية الشبان المارونيين)

كي اعدل عن الخطابة بهذا الموضوع تجنباً للشر وهرباً من العواقب
 الوخيمة حسب زعمهم ولعمري لا ينجم عن البحث والتفتيش
 المصحوبين بالمعرفة والحكمة الا كل شيء مستحسن ومفيد .
 البحث ام الحقيقة . ماذا افعل اذن . أأرمي نفسي في بحر البحث
 والتنقيب ام اسلم تسليماً غير شرطي دون ان انبس بنت شفة .
 من وجه لا اريد ان اخون ضميري واعود نفسي التردد فالشاعر
 يقول :

اذا كنت ذا رأي فكن فيه مقدماً

فان فساد الرأي ان تترددا

ومن وجه آخر اود لو راعيت خواطر اعضاء الجمعية التي
 انا عضو منها واجبت سؤلهم . فان تكلمت استاءوا وان لم اتكلم
 استاءت الحقيقة وهذه هي الورطة التي وقع بها ذاك الخطيب
 المفوه اسكندر افندي العازار لما تكلم عن « الجرائد وجراندنا »
 في مدينة بيروت فاخذ في البدء يسرد تاريخ الجرائد مبتدئاً بالصين
 ومنتهاً في اوروبا ووقف يتبصر لما اتصل به البحث الى جرائدنا
 وحالتها في تلك المدينة . والموقف يستوجب كثرة التبصر اذ
 كانت تلك القاعة غاصة برجال الحكومة واصحاب الجرائد ونخبة
 الجواسيس وكلهم كانوا واقفين للخطيب بالمرصاد يتوقعون منه
 كلمة واحدة ضد الجرائد او المكتويجي ليشوا به ويسعوا بتوقيفه
 وحبسه فبعد ان تبصر قليلاً قال : جرائدنا . . . احسن صبغة

للشعر عند عيد عون . . . جرائدنا . . . احسن دواء لوجع الرأس
 عند ابي نحول . جرائدنا . . . جرائدنا . . . فنهض احد اصحاب
 الجرائد في ذاك الشغل وقال له « ما معنالك لم لا تتكلم » فاسكتته
 الخطيب اذ قال :

« الله يضيق على من يضيق »

اما نحن فلسنا في بيروت الآن ولسنا محاطين بالوالي
 والمكتوبجي والجواسيس ولا توجد فوق رؤوسنا ايدي رجال
 حكومة ظالمة جائرة مستبدة من شأنها الضغط على العقول
 وتوقيف كل من نطق بالحقيقة وصرح عن افكاره بحرية واخلاص .
 نحن في بلاد طرحت فنمت في ربوعها بزور الحرية منذ نشأتها نحن
 في جمهورية عظيمة يحق لكل من وطئ اراضيها المباركة ان
 يتكلم بحرية تامة بشرط ان لا يمس حرية غيره . وهذه الحكومة
 العادلة قد كفلت لشعبها الحرية بجميع انواعها كحرية الاديان
 وحرية الصحافة وحرية الخطابة وحرية التعليم وحرية العمل واعم
 الحق هذا اكبر باعث لتقدمها السريع ونشأتها الغريبة . فما لنا اذا
 ومراعاة الخواطر عند البحث عما يعود باكبر الفوائد على السوريين
 في بلادهم وفي المهاجر . . . موضوعي التساهل الديني اتريدون
 ان اتكلم (فجاء الجواب من الجمهور اخطب اتكلم !)

أأتكلم ؟

تكلم . تكلم تكلم !

سأتكلم إذا وعلى الله الاتكال .

موضوعي في هذه الليلة الخافلة متشعب الاطراف جليل
الشان جزيل الفوائد ذو اهمية تأثيرها في المجتمع الانساني لا
يقاس ولا يحدد . هو الموضوع الذي انقسمت عليه الرجال في
الاعصار الغابرة المتوسطة حين كان يدافع عنه كل المدافعة العلماء
والفلاسفة والاحرار ومحبو البشر الابرار ويعارضهم كل المعارضة
الروساء والامراء والملوك وكل من فضل قطعة معدن تدعى
خطاء تاجاً على ذلك الشيء الخفي السري الالهي الذي يسمى ضميراً
(تعريف التساهل)

التساهل هو التسامح بوجود ما لا يستصوب بتامه^(١) وهذا

(١) كل عقيدة وكل مذهب وكل تعليم لا تعتبر صحته عند جميع الناس
والشعوب فهو غير مستصوب بتامه وان كان صواباً . الديانة المسيحية مثلاً هي غير
مستصوبة بتامها ليس عند الشعوب الغير المسيحيين فقط بل عند المسيحيين انفسهم
فالمسيحي البروتستاني لا يستصوب المذهب الكاثوليكي بتامه والعكس بالعكس وذات
الحالة تتور الشيع البروتستانية المعيدة - والدين الاسلامي هو غير مستصوب بتامه
عند كل اناس حتى عند المسلمين نفوسهم فان منهم الشيعيين والسنيين والصوفيين
والمعتزلة والمجسدين وغيرهم من الشيع المتعددة . وكل من هذه الشيع لا تستصوب
تعاليم الاخرى بتامها . ولا يستصوب بتامه الا الحقائق الراهنة التي لا ينكر صحتها
احد على الارض وهي ما كانت من طوق ادراك العقل لها فناموس الجاذبية مثلاً هو
مستصوب بتامه عند كل من عرفه واثنان واثنان تساوي اربعة لا ينكر احد صحتها
ولا يوجد رجل على البسيطة له مسكة من العقل يقول لك $2+2=3$ ولو قلنا : الخطان
التساويان لا يتحدان معاً ادمت مدهما فهو تعليم يقر بصحته كل من درس الهندسة او
تروى قليلاً في القضية . هذي هي الحقائق الراهنة - حقائق رياضية قاطعة لا ينكرها
احد وهي تستصوب بتامها . والشيء الذي يستصوب بتامه لا لزوم للتساهل به لان
كل الناس تتألف وتتفق بخصوصه .

تحديد كلي اما الجزئي فهو اجازة العقائد الدينية والطقوس الطائفية التي تخالف الطقوس والعقائد المختصة بالدولة . وهذا تحديد لا يطابق حالتنا ولا يوافق الظروف الحاضرة . فاليكم اذا بتحديد يأتي بالمراد : التساهل الديني هو الاعتبار والاحترام الواجب علينا اظهارها نحو المذاهب المتمسك بها ابناء جنسنا ولو كانت هذه المذاهب مناقضة لمذاهبنا وتقاليدنا وطقوسنا على خط مستقيم يجب علينا ان لا نمكن ما لا يستصوب بتمامه من ان يفرق بيننا ويشتت شملنا ويقسمنا على انفسنا

التساهل لا يكون في الامور الدينية فقط بل في كل المسائل التي تطرأ على عقول البشر ويعمل بها الكبار والصغار عدا ما يستصوب بتمامه . ولا نستطيع ان ندخل هذا الباب دون ان نطرق باباً اخر . فالتساهل نجم عن التعصب وهاتان الكلمتان ضدان وهما ثانوية من ثانويات الطبيعة كالنور والظلمة والفضيلة والرذيلة والخير والشر والعدل والظلم . فلولا ذلك لما كان هذا . لولا الاول لما كان الثاني . فالتعصب اذاً ولد التساهل والتساهل ولد السلام والسلام ولد النجاح والنجاح ولد السعادة مثلما ابراهيم ولد اسحق واسحق ولد يعقوب ويعقوب ولد يهوذا واخوته . فالسليمة واحدة لكن الترقى يأخذ مجراه حسب سنة النشوء والارتقاء والتعصب يسبق في كل الاحوال ليستوجب التساهل لان القضيب المستقيم يكون تقويمه اعوجاجاً .

ولكي يكون الشيء صريحاً والبرهان جلياً اجعل لكم تشبيهاً ثانياً
التساهل هو الابن والتعصب هو الاب ولحسن الطالع لم يوجد في
العائلة البشرية برمتها اب وابن لم يتفقا ويتواليا في زمانهما قط الا
هذين الاثنين فالاب التعصب يكره الابن التساهل والابن لا
يستطيع ان ينظر الاب فاستمرت بينهما نيران الفتن وحمي
وطيس القتال في الاجيال المتوسطة التي يدعوها المؤرخون
الاجيال المظلمة وكان الفوز احياناً لهذا واحياناً لذلك حتى دخل
المتحاربون القرن التاسع عشر فاخذ الابن يفوز على الاب . اخذ
التساهل ينتصر على التعصب واخيراً اشق قلبه بخنجر العدل وفراه
بسيف الرحمة . مات التعصب ولكن وأسفاه كان موته الى حين
اي ان روحه عند خروجها من جسمه الديني تقنصت بقوتها
الاصلية بالجسم السياسي . خرجت من الجسم البشري ودخلت
الجسم الحيواني عوضاً عن التعصب الديني الذي سود صفحات
التاريخ في الاجيال الغابرة قد ابتلينا بايامنا هذه بتعصب سياسي
او دولي اذا شئتم لم نزل له مثيلاً في تاريخ العالم باسره . فما هذه
الحروب التي تشهرها الدول الاوروبية على الشعوب الحقيرة
والقبائل الضعيفة الصغيرة الا نتيجة التعصب الدولي نتيجة
الفكر الفاسد الذي تتمسك به الدول وتعمل بموجبه فانكلترا
تعتقد نفسها اصلح من فرنسا وفرنسا ارفع واعظم من جرمانيا
وجرمانيا اقوى واحسن من الاثنين الخ واذا راقبنا حركات الدول

واطلعنا على اسرارها ودرسنا سياستها وكشفنا الحجاب عن خفاياها وتأملنا الحروب العديدة التي تهدم هيكل المجتمع الانساني وقفنا حيارى نسأل انفسنا هذا السوال المضحك نحن من الجيل التاسع عشر جيل التمدن والنور جيل المبادئ الديموقراطية والاشتراكية والرحمة المسيحية ام نحن على باب القرن العشرين . اجل نحن من الجيل التاسع عشر . . . قبل المسيح وليس بعده . وقد تميز هذا الجيل بالتعصب الدولي ولذلك دعوت خطابي التساهل الديني الناتج عن التعصب الديني لا يميزه عن التساهل السياسي . اما المبدأ الاساسي لهما فهو واحد ولا يتغير منه سوى التكوين الخارج والاحوال الظاهرة .

ثم التساهل يكون اما من الدولة واما من الشعب واما ان يكون طوعاً واختياراً واما كرهاً وجبراً . اما التساهل الدولي الديني فهو يشمل الان الدول الاوروبية بمعاملاتها بعضها مع بعض ولكنه لا يشمل الشعوب التي يدعوها الاوروبيون متوحشة فالدول لا تتساهل مع هؤلاء المساكين الضعفاء بل يتساهل بعضها مع بعض لانها تضطر الى ذلك وليس جأ بالمبدأ الشريف فكثيرا ما تراها تشهر الحروب على القبائل الضعيفة وتدعوها حروب الانجيل وذلك لكي يعتنق « البرابرة » الدين المسيحي كرهاً وجبراً . وهذا هو التعصب الدولي الديني هذي هي الاضطهادات التي كانت تمارسها الدول الاوروبية المسيحية بعضها ضد بعض والان تمارسها

ضد « البرابرة » كما ترعم والبرابرة قوم يشعرون ويتألمون مثلنا . هذه هي حروب شارلمان واضطهادات الملكة حنة الانكليزية والملك كارلوس الافرنسي . هذه هي مذبحه ليلة القديس برتلموس فعوضاً عن حدوثها في باريز وفي الجيل السابع عشر تحدث الان في صحارى افريقيا وفيافي آسية وتلول السودان وفي اخر الجيل التاسع عشر . ياللعار وياللسنار ! عبثاً يكتب العلماء ويندد المصلحون ويبحث الفلاسفة . عبثاً اتى السيد المسيح الى الارض لمثل هؤلاء الاقوام

اما الدول المسيحية بمعاملاتها بعضها مع بعض فلسنا نرى للتعصب الديني اثر بينها فصار الكاثوليكيون بأمن وسلام في الجزائر البريطانية والبروتستانتون يأمنون على انفسهم في اسبانيا وفرنسا وايطاليا واليهود لا خوف عليهم من الاخطار والطرده في اي بلاد حلوها ما عدا الروسية وصرنا نرى في مجالس الامراء الانكليزية اللوردية والنواب الكاثوليكين واليهود . وفي الدولة العثمانية نرى الموظفين على اختلاف نحلهم ومذاهبهم من المسلمين والمسيحيين والدروز . فالتساهل اذاً في الدولة موجود غير انه بين الملل والشعوب المختلفة مفقود . لان الكاثوليكين في هذه البلاد الحرة كطائفة لا يجنون البروتستانتين والبروتستانتون يكرهون الكاثوليكين وقس على ذلك في كل الامم لاسيما في الامة السورية فلو كان بوسعنا نحن السوريين كلنا لاضطهد بعضنا

بعضاً وشهراً على بعضنا الحروب الدموية ولكن الدولة لا تساعدنا على الاضطهاد الديني وروسا، الاديان لا يستطيعون ذلك وحدهم ولو استطاعوا لا يترددون .

عندنا نحن شي . اقبح من الاضطهاد واضر من الحروب .
 عندنا السياسة السرية والايدي الخفية والاعمال الباطنة الشيطانية فكل هذه المنكرات تشير الى غرض واحد وهي اكبر باعث على ابتعادنا وانقسامنا بعضنا على بعض ومعاداة بعضنا لبعض .
 فالسياسة الخفية هذه اقبح من الاضطهاد لاننا بالاضطهاد نستأصل دابر من خالفنا بالمذهب فلا يبقى لنا معاند مفاخر ولا عدو مكابر ولكن السياسة السرية تفسد القلوب وتقتل في الانسان كل عاطفة شريفة . السياسة هذه هي الجبن والضعف واللوم والخيانة والغش والنفاق والايدي التي لا تظهر مخالفاً الا في الظلمة الكالحة يدعو عليها بالكسر كل حر صادق وكل شجاع . هذه سياسة سيئة غايتها ووخيمة عاقبتها وابناء امة واحدة يبقون بسببها منقسمين . منفردين عاجزين عن العمل مشمولين بالخمبول ومكتنفين بالجهل فيتسلط عليهم شعب آخر او امة غريبة فيبقون اذلاء جبناء الى ما شاء الله . هذه سياسة لا طائل تحتها ولا نجاح وراءها بل ان صاحبها يلقي الفشل ويبتلى بخيبة الامل قبل ان تمتد نيران فتنته فتفضي بالامة الى البوار

ايها السوريون نحن امة لا يتجاوز عددها ثلاثة ملايين نفساً

منهم مليون متشتت في اقطار المعمور الأربعة فاذا وجد فينا خمسة عشر حزباً او ملة فماذا ياترى تكون عاقبة شقاقتنا وانقسامنا الا يكفيننا الضعف الذي يشملنا بكوننا امة صغيرة حقيرة حتى نبتي ايضاً بضعف الانقسام وماذا تكون قوة كل حزب او كل طائفة اذا شرعت تعمل عملاً خطيراً يستغرق الوقت الطويل والسهر والكد والاجتهاد ويستوجب تضحية المال والنفوس وخيرات البلاد .

اي عمل قامت به هذه الطوائف الصغيرة وكانت فوائده اكثر من اضراره ؟

فلو كان عددنا مائة مليون لما اضرنا انقسام الاحزاب الى عشرين حزباً ولا خمسة عشر طائفة فعندئذ يكون الحزب قوياً واذا شرع يعمل عملاً او ينهض نهضة سياسية او ادبية كللها بالفوز والظفر . هذه الامة الاميريكية يبلغ عدد سكانها ما ينيف على الثمانين مليوناً ومع ذلك لا نرى فيها اكثر من خمسة احزاب سياسية واما الطوائف الدينية فكثيرة ولكن لا قوة ولا ذكر لها في الامور السياسية والوطنية والمدنية . قد سلبت منها سلطتها او بالحري قتلت بيدها ولذلك هي ضعيفة ذليلة . قد قالت الحكومة الجمهورية لهذه الطوائف الدينية ما معناه : لكل دين حق البقاء . ولا حق لدين ان يبسد ديناً آخر بالقوة الوحشية .

لكل دين حق البقاء ، افكروا في ذلك وابقوا هذه الاية في حافظتكم . ودولتنا العثمانية تنهج نفس المنهج فالمسلمون يتساهلون مع النصارى ويسمحون لهم بممارسة دينهم حسب طقوسهم وتقاليدهم ولما كان الانسان يجتهد ليستفيد من كل شيء استنتجت الدول ولاسيما الدولة العثمانية نتيجة حسنة تأول الى سياستها بالراحة تعويضاً عن لذة الاضطهاد الوحشية فغدا التساهل ضرباً من السياسة الدولية بواسطتها تستميل الدولة الرؤساء والرؤساء قادة الشعب وسادته فتصبح البلاد بواسطة هذه السياسة براحة وطاعة - راحة لا تشكر ولا تراد وطاعة لا تحمد ولا تحمد . اني افضل الاضطراب والعذاب على هذه الراحة اني افضل الثورة على هذه الراحة المقوتة . راحة الذل والحمول راحة الجهل والعبودية .

وكانت قد اتخذت هذه الخطة الدولة الرومانية التي كانت تتساهل بوجود الاديان في الاجيال الاولى للمسيح . وقد وصف هذا التساهل المؤرخ الشهير نِمْبُنْ بكلام وجيز مفيد فصيح قال : « ان انواع العبادات على اختلافها كانت سائدة في العالم الروماني وكان الشعب يعتقدونها كلها صحيحة والفلاسفة يعتقدونها كلها خرافية والحكام رأوها كلها نافعة مفيدة » . هذا كلام فيلسوف ومؤرخ مدقق . افكروا به . وهكذا انتشر التساهل وجلب على الشعب ليس فقط السلام والراحة بل

الاتتلاف الديني والجامعة المدنية فالحاكم هنا رأى في الديانات المختلفة شيئاً مفيداً وقال في نفسه فلندعهم يختلفون ما دام اختلافهم يسبب غبطتنا وسعادتنا ويؤيد سلطتنا ويعظم شوكتنا ويرفع مجدنا .

والدولة العثمانية تتساهل مع النصارى كي تبقئهم اذلاء شاكرين ولروئسائهم مطيعين ولسلطتها خاضعين !

قد برهنت لكم كيف الدولة تتساهل مع النصارى ولا اظن احداً منكم يشك في تساهل المسلمين معنا ولكن عجباً كيف ان النصارى لا يتساهلون بعضهم مع بعض . الا جانب يتساهلون معنا ونحن لانتساهل مع اخواننا في الوطن الواحد ولا نواري اختلافاتنا عند مصلحة امتنا ولا نتناسى ضغائننا عند محبة وطننا ونجاحه ولربما قال بعض اللاهوتيين : كيف نتساهل مع من لا صحة لدينهم ولا حق في معتقدهم فاقول : ان التساهل مبني على التناقض والخلاف في صحة من ادعى الصحة وبوحي من ادعى الوحي ولو لم يكن ذلك لما تساهلت الحكومة مع الطوائف المخالفة لمذهبها لان الغاية القصوى من غايات الحكومة المتعددة هي ان تحامي عن كل مبدأ صحيح وتكفل لكل رجل حرية القول والفعل اذا لم تمس حرية غيره . فلو تأكدت الحكومة ان الدين الفلاني هو الدين الصحيح لما كانت تساهلت مع بقية الاديان ولا اجازت ممارسة دين يخالف هذا الدين الصحيح الا

لغاية سياسية كما ذكرت ولكن لما كان الخلاف سائداً والتناقض
شائعاً والحكومة المدنية تهتم بسياسة تناقض كل من رؤساء الأديان
يدعي صحة دينه ضاع صواب الشاعر في ضوضاء اقوالهم فانشد
قائلاً :

« في اللاذقية ضجة ما بين احمد والمسيح
هذا بناقوس يدق وذا بمأذنة يصبح
كل يعظم دينه ياليت شعري ما الصحيح »
الله لا يفضل امة على امة ولا طائفة على طائفة الله لم يصطف
له في الارض شعباً خاصاً من حيث انه ذرية لها حق الانتماء الى
اختيار الله لها دون غيرها وما يقرأ في التوراة من تفضيل الاسرائيليين
على غيرهم فلكون عبادة الاصنام والمنحوتات وسائر المخلوقات
هي من خرافات الدين فلوتر كهذا قوم من المغضوب عليهم كما في التوراة
وساروا بحسب الناموس الطبيعي لكانوا كالا اسرائيليين الذين استلموا
الوصايا اذ الوصايا العشر كلها طبيعية يفهم ضرورتها العقل المتنور
ويغلط من يفهم اختيار الله للاسرائيليين انه اختارهم ليعضدهم
ويهددهم دون غيرهم فلو كان هذا هو المفهوم لبقيت عجائبه فيهم
بعد مجيء المسيح ايضاً . ولكن عدل الله ارفع من ان يحصر
خلاصه بذرية دون غيرها ولذلك قال في الانجيل الطاهر اذهبوا
وبشروا كل الامم . ان من سار حسب الشرائع الطبيعية فعمل
الخير وابتعد عن الشر كما يرشده عقله ولم يتوصل الى معرفة الدين

الحقيقي فانه لا يهلك لان الله روف ورافته لا منتهى لها ولذلك
اقول مع محمد (صلعم) ما الناس الا امة واحدة . هذه آية منزلة
وهي عين الحكمة التي اوحاها الله لاوليائه . ما الناس إلا امة
واحدة . افتكروا فيها . انها لا آية فلسفية سامية وما الدين
التوحيدي الا دين واحد فكلنا نتحد بالرب و كلنا نعبد الهاً واحداً
قلت ان التساهل مبني على الخلاف وادعاء الحق للذين قد
يكونان اوصلا الشبطين الى الشك في كل شي . فقالوا عن كل
امر « لا ندري » وهم الالادرية المسخور بهم لانهم يقولون لا
ندري عما هو حقيقة مدركة لا لانهم يقرون بقصورهم عن ادراك
مسائل شتى وحقائق فوق العقل ففي مثل هذه الحال تفتخر العلماء
والحكماء بقولهم لا ندري جواباً عن المسائل التي تفوق مداركهم
والكنوه الالهية التي يعجز عن تحديدها العقل البشري . فلم
تتعصب ولم نستبد ما دما نتذبذب من ضعفنا عن البحث في
امور دينية كثيرة لم يصل العقل اليها . من قال لا ادري جواباً
عن مسألة لا علم له بها فقد برهن عن صحة عقله . وسلامة ذوقه .
وحسن رأيه . وعمق حكمته . وثاقب فطنته .

وقول القائل لا ادري كما قال العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي
خير من ان يقال له اخطأت وقد عد ذلك من جملة ما أثر ذوي العلم
وادلة كماله فيهم حتى ان السيوطي عقد باباً في كتاب من
مؤلفاته في من سئل من العلماء عن شي . وقال لا ادري فذكر

عدة من مشاهيرهم كالأصمعي وابن دريد والاختش وأبي حاتم وغيرهم من أهل هذه الطبقة . قال الزعفراني : كنت يوماً بحضرة أبي العباس الثعلب فسئل عن شيء فقال لا أدري فقال له بعض من حضر اتقول لا أدري واليك تضرب كبار الأبل واليك الرحلة من كل بلد ؟ فقال : لو كان لأمك تمر بقدر لا أدري لاستغنت . وسئل الشعبي عن مسألة فقال : لا أدري . فقيل له : فبأي شيء تأخذ رزق السلطان ؟ فقال : لا أقول فيما لا أدري لا أدري . ويقرب من ذلك ما حكاه بعض علماء العصر من الفرنسيين قال : إن إحدى خواتين الإشراف تصدت يوماً لأحد مشاهير العلماء في مجلس حافل فقالت له : أمطر يكون بعد الهلال أم صحو ؟ فقال لا أدري . قالت إذا ما علة اتصال الغيث في هذا العام ؟ قال : هذا مما لا نعلمه . قالت : اتظان سكان المشتري يكونون على خلقنا ؟ قال أيتها السيدة اني لا أعلم شيئاً عن ذلك . قالت : يا عجباً فلم يتبخر المرء في العلم إذا ؟ قال ليقول أحياناً انني لا أعلم شيئاً .

فلنتساهل إذا في الدين إذ اننا لا ندري والذي يدعي المعرفة هو هو الذي لا يدري بانه لا يدري بل يخبط في الأمور خبط عشواء . فليبق كل على دينه إذا دله عقله على صحته بعد التنوير الكافي والترفع عن الأهواء ولا ينتظرن أحد رؤية دين غير مستصوب بتمامه كما يرى الحقائق الرياضية والعلمية مثلاً مما هو

مستصوب بتامه .

ولتجمعنا الوطنية اذا فرقنا الدين والله لا يريد التفريق

لا تأخذوا كلامي على غير مأخذه ولا تحملوه على غير محمله
وتقذفوا عليّ لحق ظاهر بكامة باطلة فتقولوا وا أسفاه على من لا
يعرف الدين الصحيح فان قلت ذلك فانا انشد معكم قائلاً اسفأ على
العالم بأسره ما اكثر الضلال فيه . واصغوا اذا شتمت لاقس عليهم
رويا رأيتها ذات ليلة و كنت قبل ذهابي الى الفراش اترصد النجوم
والكواكب واستطلع طلعة البدر تحدجني السماء بعينها الزرقاء
واتأمل في ما رصعتها به يد القدير من الدراري الزاهرة كالمصابيح
الباهرة . حدث لي ذلك لما كنت في جبل لبنان الجبل العزيم
الذي كثرت فيه الخرافات وتعددت بين سكانه البسطاء المذاهب
والديانات . الجبل الذي ترى في اكثر جهاته الشامسة والكنائس
والأديار والقلائس . الجبل الذي ابتزت خيراته الكثيرة رؤساء
الدين والدنيا وضاعت بين كيس هذا وجراب ذاك . وملكتم
ارزاقه الرهبانيات العديدة الوطنية والاجنبية وفي مقدمتها
الرهبانية اليسوعية .

كنت في تلك الليلة أتأمل في الكواكب والبدر والثريا
ودرب التبان التي تدعى ايضاً نهر المجرة وقد شبهتها بدرب
التاهل على الارض لانها بيضاء نقية تسري بها النجوم في
مناطقها لا تلتطم فهن موتلفات مفترقات لا تتساقط منها الشهب

ولا تتنافر اجراءها في دورانها .

فلكثرة تأملي في الخالق والعزة الالهية في تلك الليلة البهية
 حلمت باني - صعدت الى السماء حياً في مركبة من نار - ولما
 دخلت تلك اللجنة الالهية التي يعجز عن وصفها بيان الانسان
 رأيت هناك عرشاً مرتفعاً عظيماً يأخذ بالابصار لشدة تألقه ولمعانه .
 ورأيت امام ذلك العرش اربعة رجال منتصبين ممثلين امام الديان
 العظيم كل منهم يرشق الآخر بنظرة الغضب والبغض فسألت
 احد الملائكة عنهم فاجابني قائلاً :

ان هؤلاء هم ممثلوا اديان العالم في السماء فهذا سفير المسيحية .
 وذاك سفير الاسلام . وهذا سفير البوذية . وذاك سفير اليهودية .
 فقلت : وماذا يبتغون من العزة الالهية ؟ فقال : قد اقلقوا راحة
 الملائكة وسكان هذه الديار بخصوصياتهم واختلافاتهم المتواصلة
 وجاؤوا الان يستغيثون رب السماوات والارض . وبعد ان
 تشاغبوا وتشاكسوا واوشك ان يفضي بهم الامر الى القتال وكل
 يتهم الآخر بالكذب والبهتان نظر الديان العظيم اليهم برأفة
 وحنان وقال : كلكم يا ابنائي صادقون - كلكم صادقون .

قلت في بدء خطابي يجب علينا ان لا نجيز ما لا يستصوب
 بتمامه ان يفرق بيننا ويشتت شمانا ويقسمنا على انفسنا كوننا
 امة ضعيفة صغيرة نحتاج الى التناصر والتعاون غاية الاحتياج ولم
 اقل ذلك الا بعد ان رأيت كيف اخذ الدين منا كل مأخذ فنخلطه

بكل اشغالنا ونتخذة حجة بكل اعمالنا فالتجارة عندنا تجارة دينية والجمعيات جمعيات دينية والنزل (اللوكندات) نزل دينية والبقال بقال ديني وقس على ذلك وهذا الذي يبعثنا على الانقسام الذي يسببه التعصب الديني الذميم .

فلنتناس الديانة في التجارة ولننبد التجارة في الاجتماعات السياسية والادبية ولنسجد لرَبنا ولنمجده (اذا كان لنا رب غير المال) مفترقين في المعابد والكنائس فقط اذا انها شيدت لهذه الغاية واني لاعجب من التناقض الذي يخالط اعمالنا وعقائدنا فمن وجه نقول ان الدين هبط من وراء الغيوم وهو مقدس ومن وجه آخر نستخدم الدين لتنفيذ ما رَبنا الدنيئة فنسلب منه القداسة وننزِع عنه الاحترام بادخالنا اياه الدوائر المدنية من تجارية وسياسية وادبية .

هل اوحى الدين ليقينا من الفاقة ويكفل لنا المسرة واللذة في هذا العالم ؟

هل اوحى الدين لنتخذة عضداً لنا بتحقيق امانينا الدنيئة وابتغاء الاشياء الزمنية التي لا حد لها ؟

هل اوحى الدين ليساعدنا على الجشع والطمع والتعامل على ابناء جنسنا والازدراء بهم ؟

هل اوحى الدين ليكون سبباً اولاً للخصام والشقاق والقتال ؟
هل اوحى الدين لتسلح به فئة من الناس ضد فئة وتستخدمه

كسيف تسله على كل من لا يقر لها بالسلطة الوهمية ؟
 هل اوحى الدين لتأسيس الدواوين التفتيشية التي تألفت في
 رومية واسبانيا والتي اربعت العالم بظلمها واستبدادها وجرائمها
 الفظيعة ؟

هل وجد الدين لبعضهم وسيلة لافساد الهيئة البشرية ؟
 هل وجد الدين كي يستخدمه الرؤساء آلة نافعة لتنفيذ ما ربههم
 الخصوصية وغاياتهم الشخصية ؟

هل وجد الدين كي يتعصب به خدمة الاديان ويستأثروا
 بالسلطة المسلوبة فيظلموا العباد ويضطهدوا من خالفهم في الرأي
 ويحتقروا من هو اعظم منهم علماً وفلسفة وعقلاً ؟

هل وجد الدين كي نفسه ونصلحه ونغيره ونقلبه بطناً
 لظهر ؟ كلا ثم كلا ثم كلا .

لو نظر الله عز وجل كما ينظر البشر الى نتيجة وحيه لما كان
 تعذب وتنازل ليكلم موسى وعيسى ومحمداً صلواته عليهم جميعاً .
 ولو نظر ايضاً الى ان عاقبة الدين الذي اثله ستكون الاضطهاد
 والطرده والحروب والشقاق والخصومة لكان ابقاءه عنده في السماء
 ولكن الله الله اعلم .

الدين اماموحي واما غير موحي . اما مقدس واما غير مقدس
 فاذا كان موحي ومقدساً فلا يحق لنا ان نتخذه واسطة لتحسين
 اشغالنا التجارية . وتنفيذ غاياتنا الشخصية . فلنحق بامتنا الضرر

الجسيم . اذ اننا نكون حجر عثرة في سبيل الجامعة التي يجب ان
تجمعنا كسوريين ونحن بحاجة كلية الى الجامعة الآن . قلت
واقول ذلك مراراً . واما اذا كان الدين غير موحى وغير مقدس
فارى من وجه الحكمة ان لا نتمسك الا بالجميل منه وننبذ
الباقي ظهرياً نبذ النواة ولكن الدين مقدس ولذلك يقدم له
الشعب الاحترام ومنه ما قدسته العادات التي مكنها الزمان
وثبتتها الممارسة وكفى بذلك قداسة تفرض علينا الاحترام والتوقير
والاعتبار .

لماذا اذاً نستخف بالدين ونتخذه كالعوبة نلتهي بها في
الشوارع والحوانيت . نحن باخراجنا الدين من الكنائس لغاية
عالية نذله ونجدف عليه . ومن التعصب الممقوت ان نميز كل
حانوت وكل بيت تجارة وكل ادارة او كل جمعية بدين مخصوص
فنقول هذا التاجر ماروني وذاك الطبيب ارثوذكسي وهذا
الصحافي كاثوليكي وما شاكل ذلك . ما هذه الحالة التي وصلنا
اليها . أينقصنا شي . الا ان نضيف الى اسمائنا اسماء طوائفنا ونقول
زيد الماروني وعمر الارثوذكسي ومحمد المسلم . فتشوا معي لاريكم
كيف تنقسم تجارنا وجرائدنا ونزلنا واطباؤنا وجمعياتنا . اولاً
عندنا التجار المارونيون والتجار الارثوذكسيون والتجار
الكاثوليكيون والتجار البروتستانتيون . واي من هؤلاء التجار
المستقيمين يبيع سلعه وسبحه ودبايسه لقديسينا المكرمين .

أيتعامل التاجر الارثوذكسي مع مار متري ومار نقولا؟ أيتعامل صديقنا الماروني مع ابينا مار مارون؟ وعندنا الجرائد المارونية والجرائد الكاثوليكية والجرائد الارثوذكسية. وعندنا المطاعم المارونية والمطاعم الارثوذكسية والمطاعم الكاثوليكية والمطاعم البروتستانية. واي منهم نزل طعامها من السماء؟ وهل يريد القديسون ان نمجدهم بالكعبه والهريسه والمجدره؟ وعندنا الجمعيات الخيرية المارونية والارثوذكسية والكاثوليكية وما ضرهم لو كانت كلها جمعية واحدة - جمعية خيرية سورية؟
 وناراً ان نفخت بها اضاءت ولكن انت تنفخ في رماد
 لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي
 وهذه الحالة تعتور كل اعمالنا واشغالنا وحرطنا
 متى تروى الشقاكات الدينية ويداس التعصب تحت نعالم
 المدنية.

متى نؤلف جمعية التساهل ونبنى كنيسة التساهل ونشيد مدرسة التساهل ونؤسس جريدة التساهل ونفتح محل التساهل ولو كندة التساهل وتصير اعمالنا كلها تساهلاً بتساهل. اي متى تشملنا هذه الحالة السعيدة؟

انا الآن اقترح على اصحاب جرائدنا العربية في الشغرى خصوصاً وفي العالم العربي عموماً اذا كان صوتي هذا الضعيف يصل اليهم ان ينشروا على صفحات جرائدهم الغراء اعلاناً باحرف

ضخمة كبيرة عن التساهل الديني وانه يعطى بلا ثمن ومن اراد ان يقتنيه ويعمل به فليقرع باب ضميره فهو البائع وهو الشاري . هو الواهب وهو الموهوب . ولو كنت ذا قدرة مالية لنشرت هذا الاعلان على نفقتي فيسدني الحساب الله يوم الغنيمة . يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً . فلتساهل اذاً . فلننشر اعلان التساهل . التساهل ايها الشيوخ الاجلاء . التساهل ايها الشبان الادباء . التساهل ايها الصحافيون والاطباء . التساهل ايها التجار والروثاء . التساهل ايها السوريون الاحباء . التساهل ! لو كان لي الف لسان ولو تكلمت من الان الى يوم الدين لما عييت من تكرار وترديد هذه اللفظة العذبة السهلة اللطيفة . لفظه كرهتها الاجيال المتوسطة وكلف بها الجيل التاسع عشر . لفظه عززتها الجمهورية في هذا الجيل . لفظه انفتحت لها قلوب المتمدنين المخلصين لابناء جنسهم وتأهلت بها الضمائر الحرة والعقول الصحيحة . لفظه طيب شذاها يملاء الفضاء . وذكا . عرفها ينعش الصدور . هي احسن واظرف والطف وابداع وامتن واجمل وارفع واسهل لفظه وجدت في معاجم اللغة

التساهل هو اساس التمدن الحديث وحجر زاوية الجامعة المدنية .

التساهل شدد عزم الاحرار فبرزت من عقولهم اسامي الافكار
التساهل اوجد الترقى والتقدم في كل فروع العلم والدين

والفلسفة .

التساهل أيد سلطة الضمير وبحق السلطة التي لم ينزل الله بها
من سلطان .

التساهل اعطى كل امرئ حقه فتمتع به ومارسه بحرية
واستقلال .

التساهل وضع حدًا للاضطهادات الفظيعة وكسر السيف
الذي استخدمته الدول لاستئصال شأفة من خالفها بالمذهب .
التساهل اطفأ بنفسه القوي النار التي اضرها الاكليروس
لمحاربة اليهود والكفار .

التساهل جعل كل رجل صحيح العقل والجسم اهلاً للوظائف
في الدولة واهلاً للانتخاب .

التساهل قوض عرش التعصب وبردّد جحافل الجور
والعسف الدينية .

التساهل قال للكنيسة انت سلطانة وقال للانسان ايضاً انت
بذاتك سلطان . وكل له حدود واينما وجدت الحدود كانت الحقوق
واصبح الامر خارجاً عنها ظلماً والايها جوراً .

التساهل هو اللين والرفق والمسامحة وهو الحلم والسلام والحكمة
التساهل يحسم الاختلاف ويمهد سبل الائتلاف .

التساهل يزيد الانسان غبطة وسعادة ونجاحاً في الحياة الدنيا
ولا يضيره في الآخرة .

التساهل هو الطريق الوحيد الذي من تحته تجري الانهار
وعن يمينه ويساره الاشجار . طريق يدر لبناً وعسلاً . طريق
مستوٍ مستقيم لا يميل بنا عن روض السماء .

التساهل هو الدواء لكل داء ادبي او ديني او سياسي او علمي
التساهل اصيل لا تنكره التوراة ولا الانجيل ولا القرآن
ولتأكيد ذلك نذكر بعض الايات الانجيلية والقرآنية .

« من لطمك على خدك الايمن فحول له الايسر . ومن اراد
ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فدع له رداك ايضاً . ومن سخرك
مياً فسر معه اثنين » (متى ٦٥ و ٤٠ و ٤١) « ان الله لا يجازي
بالوجوه فكل رجل من اي امة كان يصنع الخير ويكره الشر
فهو مقبول عند الله » . (بطرس الرسول)

افعلوا بالغير ما تريدون ان يفعله الغير بكم او كما قالها
كنفوشيوس الذي عاش قبل المسيح باربعمئة سنة « لا تفعلوا
بالغير ما لا تريدون ان يفعله الغير بكم » . وهذا الآية هي منزلة .
هي الآية الذهبية الفلسفية . هي كل الدين وكل الادب وكل
الشريعة وكل العدل وكل الفضيلة .

ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن
بالله واليوم الاخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف
عليهم ولا هم يحزنون . (سورة البقرة)

من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف

عليهم ولا هم يحزنون . (سورة هود)
 من اسلم وجهه لله وهو محسن . ما قال وهو ماروني او
 ارثوذكسي او مسيحي او يهودي او محمدي . قال : من اسلم
 وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم
 يحزنون . ما اجل هذه الآية وما اشرف تلك الآية الذهبية التي
 مر ذكرها . ان هاتين الآيتين عظيمتان . الواحدة منهما من
 الانجيل والثانية من القرآن . انهما منزلتان . ذهبيتان .
 فلسفيتان . اني اهبكم كل الكتب المقدسة بهاتين الآيتين .
 ادفع بالتي هي احسن السيئة (سورة المؤمنين) اليس هذا
 ضرباً من التساهل ؟

لا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن (سورة
 العنكبوت) ايشتم من هذه الاية رائحة التعصب ؟
 التساهل اذن هو الناموس وهو الطريق وهو النور وهو
 معطي الحق وهو الحياة وهو روح الله . هو اول درجة في سلم
 العمران واخرها . هو الالف وهو الياء
 التساهل هو الباب . ومن يدخل فيه لا يهلك . فلندخل اذا
 فلندخل ا فلندخل ا فلندخل !!!

المقالات

وصية فوءان باشا السياسية^(١)

قيل ان دخول الحقيقة قصور الملوك لمن اصعب الامور .
وهي حقيقة جديرة بالنظر . فلو تأملها الساسة العثمانيون والمصلحون
لكانوا يقلعون عن مخاطبة الحاكم في اصلاح شؤون الدولة . فالحاكم
لا يصلح . الحاكم يحكم . وعلى المحكومين اذا كان النير عليهم
ثقيلاً ان يخلعوه وينبذوه . على المحكومين اذا كان الحاكم ظالماً ان
يصلحوه او يابوه .

فالحاكم الظالم مظلوم مثل رعيته . وكفاه متاعب الحكم وعذابه
متى بدأ النير يتقلقل على رقاب العباد . لو كنت انت الحاكم ايها
القارى . المظلوم وجاهك وزيرك ذات يوم يقول : قد تخلع النير
وتفكك يامولاي . فاذا تقول له اذا كنت لا تستطيع اصطناع
او ابتياع نير جديد ؟ اتامره بان ينزع النير المخلع او يصلحه ؟ لا .
فانك تقول له : اصلحه وثبته في مكانه . وهذا هو الاصلاح
الذي يباشره الملوك والسلاطين هذا اذا كان يرجى منهم اصلاح .

(١) ترجمها الى العربية جميل بك معلوف وطبعت في مطبعة المناظر

وجدير بنا ان نذكر ان الاصطلاحات التي جرت في الدول الاجنبية لم تكن الا نتيجة القسوة التي استخدمها الشعب نحو حاكمه . والشعب لا يلتجئ الى هذه الوسيلة الفعالة الا اذا افاق من سيئاته وتنبيهه الى حقوقه وتهذيب شعوره المدني . فببدل ان نوجه الكلام في وصيئتنا السياسية اذا الى الحاكم لنعلمه بان النير تخلع ويقتضي اصلاحه - بدل ان نبسط الكلام الى السلطان في كيفية تأييد وتعزيز دولة استبدادية كان الاجدر بنا ان نبسطه الى الشعب المظلوم فنريه بعض اسباب الظلم التي تورث البلاء والشقاء . ونهديه الى بعض الوسائل الفعالة التي تريل هذه الاسباب .

فلو وجه فواد باشا خطابه الى الامة لا الى حاكمها لو وجهه الى المظلوم لا الى الظالم لكان افاد حيث اجاد . لان رأي من يطاع يوتر في الشعب الجاهل اكثر من رأي من لا يطاع . والافراد المستنكرون يثقون بكلام وزير فقته الحوادث وانارت العلوم فواده . لاسيا وفي هذه الوصية كلمته السياسية الاخيرة . وكلمة السياسي الاخيرة قلما تشوبها السياسة . وقد ادرك هو ذلك اذ قال : « ان الصوت الخارج من القبر لا يكون كاذباً » على انه ان لم يكن كاذباً فقد يكون مخطئاً . وقداسة الضريح لا تمنعنا من ان نشير الى هذا الخطأ . نشير اليه مع اجلالنا صاحب الوصية واعتبارنا ووصيته كمجموعة آراء سياسية فيها الغث وفيها السمين . فاننا نحترم بعض السياسيين ولكننا لا نأمن احداً منهم . اما

الوصية اجمالاً ففيها دليل ناصح على اختبار صاحبها الواسع وحكمته
وعلى تعمقه في درس ما دق وخفي من الامور السياسية . وفيها
ايضاً من الاداء السديدة والحكم البليغة ما يسر ويدهش المتفلسفين
واليك شيئاً منها

« ان ترقيات جيراننا السريعة وتأخرنا الناتج عن اغلاط اجدادنا
غير المقصودة قد اوقعنا الان في مهلكة عظيمة لا يمكن الخلاص
من عاقبتها الوخيمة الا بقطع كل علاقة مع حالتنا السابقة والعمل
على تجديد قوى الدولة بالوسائل العصرية الحديثة »

وكيف يتسنى للفرد او للامة الانسلاخ عن الماضي . انها
لاحدى طرق الاصلاح ولكنها ليست بالاقرب والاسهل . بل
هي نتيجة لها مقدمات . وذرورة ذات عقبات . فالانسلاخ عن
الماضي ليس بامر سهل بل يكون في الغالب مستحيلاً . واما
التخلص من « اغلاط اجدادنا غير المقصودة » فتلك مسألة اخرى
ومن هذه الاغلاط غلطة مدنية عظيمة بل خرافة سياسية وخيمة
لا نظنها تتسلط الى الابد على عقول الناس والامم . فان العلم
يزعزعها وان كانت متأصلة في الاجيال . والزمان يهددها وان
كانت راسخة كالجبال . ويزيد بهذه الغلطة . بل هذه الخرافة .
الحكومة الملكية حيث الامة ومعظمها من الفقراء والبائسين تلزم
بمعايش فرد عظيم فيها لا يتعيش ابداً في حياته فترضاه عليها ملكاً
وتعد له الصروح والقصور وتحيطه بالحجاب والحرس وتنفق عليه

ما ينيف على مئة او مئتي الف ذهباً كل عام فضلاً عما تنفقه على ذريته وحواشيها . ومع ذلك فصاحب التاج والصولجان اليوم قلما ينفع الامة وغالباً يرهقها . فهو اما خيال كملك الانكليز واما مقلق كإمبراطور المانيا واما ظالم ك.....

ولكنهم كلهم يظلمون متى استطاعوا الى الظلم سبيلاً . فالحكومة الملكية غلطة من اغلاط الاجداد لا بد ان يصلحها لعلم والزمان في كل مكان . وهناك غلطات اخرى ذكر صاحب الوصية بعضها . فالماضي من هذا القبيل يا سيادي لا يتسلط الى الابد على المستقبل . والتقاليد لا تستعبد الامم الى الابد . فان القوى الكامنة في المستقبل الغير المحدود لا تقوى عليها سلطة محدودة هي ابنة اربعماية او الف عام . بل من المستحيل ان تخضع الابدية لبضع ساعات زائلة . ونسبة القرن الى الابدية كنسبة الساعة الى الالف عام . ففي المستقبل اذاً دول جديدة ورجال . ومن خلال المستقبل ينظر الله بعين واحدة الى ذوي المحارث وذوي التيجان .

اما الترقيات الحديثة التي يروم فؤاد باشا ادخالها الى الدولة فانها في رأينا لا تكفي لتعزيزها واصلاح شوونها . لان السكك الحديدية والتلغرافات والتلفونات والقوات الكهربائية والبخارية جميعها تريد الامة قوة ولكنها لا تريد اعقلاً . تريد الملك مناعة ولكنها لا تريد علماء . والامة اليوم الى نور العلم الصحيح افقر

منها الى نور الكهرباء . هي اخرج الى التهذيب منها الى السلاح
ولعمر الحق ان الامة المهذبة لامضى سلاحاً في يد الدولة . نحن
الآن الى مدارس راقية وطنية افقر منا الى السكك الحديدية .
واما اذا وضع حجر زاوية هذه المدرسة عند خطوط « السكة »
فلا بأس بالاثنتين . واذا كان ذوو الامر يعاملوننا مثلما كان احد
الامراء الاشعاع يعامل ذويه فيقول لهم : اليوم تأكلون اما الحماً
او عنباً . اختاروا احد الاثنتين . فجوابنا حاضر : امسكوا علينا
البخار والكهرباء الان واسسوا لنا المدارس الوطنية . دعونا نيسافر
كما كان يسافر اجدادنا ولو فترة اخرى من الزمن . حكيم على حمار
خير من حمار في السكة

لنعد الان الى الوصية فقد جاء فيها : « ولزيادة الايضاح
اقول ان دولتكم العلية اذا لم يكن لها قوة انكثرا البحرية وقوة
فرنسا العلمية وقوة روسيا العسكرية فلا يمكن سلامتها »
فقوة فرنسا العلمية تكون لنا في مستقبل الزمن اذا
تأسست في المملكة اليوم المدارس العمومية الوطنية المجانية
الاجبارية وامتنع فيها تعليم الاديان لنتخلص رويداً رويداً من
التمصب الديني الذميمة الذي لم يزل ينخر في عظام العظام والمستنيرين
منا . وتأسس من الجامعات الدينية المتعددة جامعة وطنية عثمانية
واحدة . عندئذ يصير لنا وطن ننتمي اليه . ونستمد من العلم
قوة تساعدنا على ادخال الترقيات الحديثة الى بلادنا بواسطة

شركات وطنية لا شركات اجنبية . فتعزز اذ ذاك الدولة مادياً
وادبياً وتتمكن قليلاً قليلاً من مساواة الروسية بجنديتها
وانكلترا ببحريتها .

قلنا ان التعصب الديني الذميم لم يزل ينخر في عظام العظام
والمستيرين من العثمانيين . واليك برهاناً على ذلك من نفس هذه
الوصية . فان صاحبها على ما هو من سعة الاختبار وغزارة العلم
ورجاحة العقل يظل متمسكاً بما يدعيه « اغلاط اجدادنا غير
المقصودة » وينسى مراراً تلك النفس الراقية فيه . فترينا نفسه
الفطرية ما يحاول ان يخفيه . فقد جاء في كلامه عن الدين الاسلامي
والدين المسيحي (وليته لم يطرق هذا الباب) ما يلي :

« ومهما بلغ عدد الزاعمين بان الدين الاسلامي هو الحاجز
دون ترقى هيئتنا الاجتماعية فانهم جميعهم في خطأ عظيم وضلال
مبين »

فالدين الاسلامي لتجرده عن قواعد سر الثالث والعصمة
قد رافق مجرى الترقيات الكونية »

ولسنا نحن من الزاعمين بان الدين الاسلامي هو الحاجز دون
ترقى الامة . ولكننا من الزاعمين بان السفسطة تستولي حتى على
عقول الوزراء . والشعوذة ابدأ تستهويهم . فاذا كان سر الثالث
يؤخر في ترقى الامة ويضر في مصلحة الحكومة وجب ان تكون
حكومتنا العثمانية ارقى بدرجات من الحكومات المسيحية

لتجرد دينها الرسمي عن هذه الاشرار . واذا كان الدين الاسلامي قد رافق مجرى الترقيات الكونية كما يزعم صاحب الوصية فلم لا نرى لهذه الترقيات اثرًا في دولتنا العلية ؟ لا والله فاننا نحترم بعض السياسيين ولكننا لا نأمن احداً منهم . فانهم دائماً يؤثرون الحقيقة الوقتية الزائلة على الحقيقة الدائمة الابدية . واذا كان الفرق بين الاثنتين غير باد للقارئ اللبيب فبكلمة ايسر نقول ان السياسي يستخرج دائماً من الحوادث والاحوال شيئاً من الحكمة السطحية ويدمغها بدمغة الحقيقة السامية . ولولا ذلك ظلت اقوال فؤاد باشا من التعصب والتناقض . وهل ممكن ان تتوحد كلمتنا وتتحد عناصر الدولة المختلفة اذا كان وزراؤنا يتعرضون لغير داع ويتعصبون ؟ خذ لك مثالا آخر من هذا التعرض والتجاهل . فان صاحب الوصية يشارك الفلاسفة في ذم الاكليسوس ولكنه يبتعد عنهم مندداً حينما يتعرضون للدين الاسلامي .
 أجل النظر فيما يلي :

« ويجب على الباب العالي ان لا يغمض الطرف عن المساعي التي ستبذل في سبيل اتحاد كنيستي الارمن والاروام وان يساعد جهده على انتشار المعتقدات الفلسفية بين التبعة المسيحية لانها ترفع عن عاتق بني البشر نفوذ الاكليسوس . »
 واما التبعة الاسلامية فهي بغنى عن مثل هذه المعتقدات ! نعوذ برب الناس من شر المنطق والقياس . فاذا كانت المعتقدات

الفلسفة تنفع البشر قَلِمََ يتمنى نشرها بين المسيحيين دون المسلمين ؟ لا والله لا . اننا نذكر من المصلحين العثمانيين من كانت نيّاته انظف واثره من نيّات فوّاد باشا . فهو ضمناً يود لو ازالا الفلسفة الدين المسيحي . على ان الاعتقادات الفلسفية اما ان تكون مضرّة بالاديان واما ان تكون نافعة . فاذا كانت مضرّة فالدين المسيحي لا يستحقها وحده . واذا كانت نافعة فلا يجوز ان يحرم منها الدين الاسلامي . ارايت كيف ان الاقوال تسقط الرجال ؟ هل اتضح لك ان بعض السياسيين لا يستحقون النعوت الشريفّة التي ينعتهم بها الشعب الغافل . نحن نعلم وكل عاقل يعلم ما للاكليروس بل لرجال الدين على الاطلاق من النفوذ السيّء على الامة ولكننا لانقبل ان يقول لنا ذلك على سبيل التعصب سياسي يود اذلالا . فاذا شار كنا اخواننا المسلمون في انتقاد الاكليروس فليذكروا دام فضلهم بان البطريرك والامام صنوان وان الشيخ والكاهن اخوان . والسلام



تركيا الجديدة وحقوق الانسان^(١)

الكتاب النفيس هو الذي تشعر وانت تطالعها بان نفس الكاتب تتنفس في سطورها وخلالها . هو الكتاب الذي لا تجد في صفحة من صفحاته شيئاً من جرائم القنوط . هو الكتاب الذي يجري دم الحياة الراقية في كلماته . ويشع نور الاخلاص من سطورها . وتتوفر فيه المادة التي تغذي النفس فتنعش فيها الامل وتحبي منها العزيمة والارادة . هو الكتاب الذي يولده العلم مقروناً بالاختبار . والحاسة مقرونة بالتفكر . والجرأة الادبية مقرونة بالحكمة . بل هو الكتاب الذي تتجلى فيه النفس البشرية والذكاء البشري والصناعة الكتابية في ارقى واجمل صفاتها . وان لم يكن كتاب صديقي جميل افندي معلوف من هذه الطبقة العليا فهو من اعلى طبقة دونها .

ولعمري ان الكتاب الذي ينبه العثمانيين في هذه الايام الى ان الامة العثمانية في بداية ثورة عظيمة . وان الثورة السلمية لا تغني عن الثورة العلمية شيئاً . وان التفرنج الحقيقي هو تمول لا تفرنج . وان التمدن كالهواء والنور مشاع لا حجة للافرنج فيه . وان مدارسنا الاكليريكية والسلطانية هي المستنقعات في ارض

(١) تركيا الجديدة وحقوق الانسان تأليف جميل بك معلوف - طبع

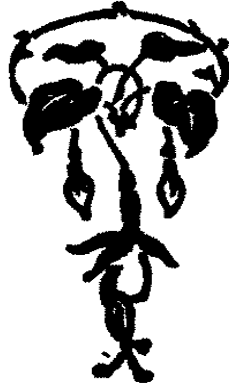
الحرية العثمانية الجديدة . وان الحكومة الدستورية ومجلس الامة لا يسلمان من الخطر ان لم تصلح حالة العثمانيين الاجتماعية باصلاح العائلة وحالتهم الادبية باصلاح المدارس . وان من الخطأ ان تضع حجراً واحداً من البناء الجديد قبل ان يسقط البناء القديم باسره . وان استناد الشرقيين على الدين في احوالهم العالمية يقضي على مستقبلهم السياسي والاجتماعي والادبي . وان الحرية متى حلت ارضاً لا تسمح ببقاء نصف اهلها عبيداً بينما النصف الآخر احرار وان الحكومة التي تستعبد رعيتهما يسلم الله عليها حكومة اقوى منها فتستعبدها (وما ظالم الا ويبلى باظلم) وان الثورة التي تنفع حقاً شعوب الارض هي التي يقوم بها المصلحون على المبادئ الفاسدة لا التي يقوم بها السياسيون على الحكومة - الكتاب الذي يصدع بمثل هذه الحقائق هو حري بالاعتبار . الكتاب الذي فيه مثل هذه المنبهات والمقويات لامة دوختها المظالم السياسية وخررتها الخرافات الدينية هو حقاً جدير بان يطالعه كل عثماني .

على ان المؤلف حياً بوطنه يفادي في بعض المواطن بحكمته . فقد يطلق العنان لحماسته في مضمار ضيق فيضطر وقد بدت له الهاوية ان يقف غير موفق دفعة واحدة . وهذا هو السبب فيما جاء في بعض الفصول من ترزع الرأي والتضعضع . قاننا لانستصوب البحث الآن فيما قد يعود على الامة وهي لم تكف تقف على رجليها بالنكسة والبلاء . اذا ما الفائدة

اليوم من البحث في استقلال الولايات مثلاً والحكومة الرئيسية لم تتخلص بعد من سيطرة دول أوروبا ومدخلاتها . وما الفائدة من البحث في اقفال المدارس الاجنبية وابطال الامتيازات الاوروبية ونحن لم نزل عاجزين . وان تحريض الشعب على مثل هذه الامور يحدث في البلاد من القلاقل والفتن ما قد يلحق طفل الحرية منها لطمه واحدة فتقتله وتقضي علينا بالخضوع لنير أوروبا . واما نشر ما يدعو صديقي جميل افندي الديانة الوطنية اي ديانة حب الوطن فهذا وحده يخلصنا رويداً رويداً من النفوذ الاجنبي . من هذه المدارس الاكليريكية وهذه الامتيازات الاوروبية . فمدارس (آباننا) اليسوعيين مثلاً تضطر ان تقفل ابوابها متى تأسست ازاها مدارس وطنية كاملة العدة . مستوفية الشروط .

والبوسطات الاوروبية تمنح مأموريها عطلة على الدوام متى رأت ان دخلها لا يقوم بنفقاتهم . والامتيازات الاجنبية تسقط دون ان نسقط او نقوم عليها متى نبغ فينا رجال يستطيعون ان يقوموا باعمال اصحاب هذه الامتيازات حق القيام . وكل ذلك ممكن يا اسيادي متى أصلحت داخلية الحكومة وظهرت فيها نتيجة اعمال الاختصاصيين الاوروبيين المشتغلين فيها الان . كل ذلك ممكن متى بدأت الحكومة تؤثر المقتدرين والمتمولين والنابعين من رعيته على امثالهم من الاجانب .

حينما تنمو في الامة عاطفة الوطنية يقوم الوطنيون اذًا بما
تطلبه حياتنا الجديدة وامتنا الحرة من المشاريع الخطيرة . وبكلمة
اخرى حينما تنشر فيها ديانة حب الوطن -الديانة الجامعة المقدسة-
يضعف نفوذ الاجانب ويتلاشى . وتسقط الامتيازات الاجنبية .
كما سقطت دولتنا الاستبدادية . بطريقة هادئة سليمة .
هذا ما احب ان الفت اليه نظر صديقي المؤلف لانني
رأيت في مثل هذه المواقف يقادي بحكمته حباً بوطنه . ولعمري
هي ضحية ثمينة في كل زمان ومكان وفي اي سبيل كان .



فاتحة مباركة

جاء في النطق الشاهاني كما دعت الصحف . او خطاب العرش كما يدعى عند الانكليز . او خطاب الحاكم والوزراء كما هي الحقيقة . ان السبب في فض مجلس النواب الاول هو ان الامة العثمانية لم تكن اذ ذاك اهلاً لحكومة نيابية . وهو عذر سياسي لا عذر حقيقي . وان روح مجلسنا الاول لتتميز غيظاً لدى استماعها هذا الكلام . وكاننا بها تقول : الكذب محذور في الدين ولكنه مباح في السياسة . وكيف لا تكون الامة اهلاً لحكومة نيابية ومفاوضات المجلس في ذاك الحين ادهشت حتى الاوروبيين ! فضلاً عن ان الحاكم بامرہ يستطيع ان يفسد ويستبد . بل الحاكم المطلق العادل . الحاكم المحب رعيته العامل لخير امته . يستطيع ان يقرب حكومته الاستبدادية الى حكومة نيابية في ليلة واحدة اذا شاءت جلالته . ولا ينجم عن مثل هذا الانقلاب السريع ما يضر بالامة او يقلقها . لان من اطاع مليكه وهو ظالم يعبد له لا شك وهو عادل . وما حدث في الامة اليابانية وحكومتها يؤيد من هذا القبيل حجتنا . واننا لنكتفي بهذه الاشارة الى ما جاء في الخطاب عن عدم اهلية الامة . لان ما مضى قد مضى ومجلس النواب قد عاد ليحيا ان شاء الله

على ان في الخطاب مأخذاً آخر جديراً بالانتقاد . وعلى

السواب والصحافيين ان يتيقظوا لمثل هذه التمويهات السياسية .
 وليذكروا دام فضلهم بان حكومتنا النيابية اليوم لم تزل مكنتفة
 بظل حكومتنا بالامس المظلم الكثيف . والى ان تخرج من هذا
 الظل وتنفض عنها غبار السياسة القديمة سيبقى التمويه سائداً
 بين العرش والتواب او بين الحكومة والامة . وانها والله لفاتحة
 غير حميدة ونحن في فجر حياة جديدة . لان الحكومة التي تخرج
 من باب العسف والظلم فتدخل توأ باب التمويه والمواربة لا
 تكون قد حققت آمال الامة والوطن . اذا ماذا عسى ان يراد في
 ما جاء في خطاب العرش من ان السبب في اعادة مجلس السواب
 هو ان الامة والسعي في الثلاثين سنة الاخيرة انشر المعارف كان
 متواصلاً اصبحت الان اهلاً لان تحكيم نفسها بنفسها . فهل يراد
 بكلام العرش ان الفضل للحكومة في نشر المعارف والعلوم في
 الامة ؟ او ان بين الوزراء من يحسن المجون ويجد حتى في هذا
 الوقت فرصة للمداعبة ؟

ومن يجهل ان الحكومة الماضية سعت سعياً جيلاً لنشر
 العلوم والمعارف بواسطة المراقبة ؟ ومن يسكر أن يد الجاسوسية
 ساعدت في زرع بذور الحرية ؟ ومن لا يعلم بان نور الحق
 والمساواة كان ينبعث على المابين من قعر البوسفور . وان اشعة
 الدستور كانت تنعكس على العرش من منسفي الاحرار ومن
 نجومهم الآفلة ؟ اجل ان حكومتنا في الامس كانت تروض الامة

وتوئبها لتكون اهلاً لحكومة نيابية . فالرقابة والجانسوسية
استاذاً الامة الماهران . والبوسفور والمنقى هما الفلق والقضيب .
والحمد لله قد تحردنا بعد ان تكسرت رؤوسا وارجلنا .

ان حكومتنا النيابية اذا لمهي من مكارم حكومتنا
الاستبدادية . شي؛ والله جميل . فمن يقول الآن ان العوسج لا
يشمر ثمراً طيباً؟ بل ان دستورنا هو من مكارم « مالك رقاب
العباد » لا نتيجة سعي الاحرار والجنود لرفع النير عن رقاب
العباد . فان كان كذلك فلم لم يتكرموا به قبل ان جمع نيازي
جنوده واستل انور حسامه ؟

لا يا ايها الاخوان لا يحق ان يقال ذلك في هذا الزمان .
واعلموا اننا في زمن لا يرد فيه تيار العلم مهما اشتدت المراقبة
ولا يطفأ فيه مصباح الحرية مهما تعاظم الظلم والاستبداد . وان
ما جاءنا من امواج هذا التيار ومن نور هذا المصباح فمن روح
الزمان جاء لا من ارباب العرش والتيجان . وقد تحردت الامة
العثمانية الان وحبطت مساعي من حاول دفع هذا التيار العظيم
واطفاء هذا المصباح الكريم . ومن المغالطات ان ظلم الحكومة
الماضية واضطهادها الاحرار وضغطها على المطبوعات الخ تدعى
كلها في خطاب العرش « السعي لنشر المعارف » فاذا كانت الصحافة
لا تحتج على مثل هذا الادعاء والنواب لا يتحذرون من مثل
هذا التمويه فالتما في نور الدستور والحرية لم ترل كما كانت في

ظلام الظلم والفساد .

اشرنا في بدء كلامنا الى ان النطق الشاهاني كتب بموازرة الوزراء او على الاقل بموازرة الصدر الاعظم وكل خبير في شؤون الحكومات الملكية يعلم بان خطاب الملك لا يكون من قلم واحد ورأي واحد بل هو غالباً نتيجة جلسات عديدة ومفاوضات طويلة بين الحاكم ووزرائه . واذا فرضنا ان الملك يستقل في عمله هذا كما يفعل امبراطور المانيا مثلاً فلا بد ان يطلع على كلامه الوزير الاكبر قبل ان يلفظه فيغير وينقح فيه ليوافق الاحوال . وخطاب العرش الى مجلس نواب الامة العثمانية لا يستثنى من هذه القاعدة . وفي الوزراء من هو من جمعية الاتحاد والترقي على ما نظن او فيهم على الاقل من اذا اصدر منشوراً باسم الجمعية يردفه بلفظة « المقدسة » فهل بدأت زعماء الاحزاب بالمجاملة والمخاتلة يا ترى . لا سمح الله . ولكن العبارة هذه اي « السعي في نشر المعارف » هي مقصودة لا شك والمقصود فيها ايها الاخوان التمويه والمواربة . وانصار جمعية الاتحاد والترقي في مجلس الوكلاء يعرفون ذلك ويغضون الطرف ساكتين . وما ضرهم لو اعطوا الان كل ذي فضل فضله . وتحروا الصدق في اول خطاب من خطب العرش لمجلس الامة . ما ضرهم لو اهملوا في الاقل ذكر امر لا يستطيع ان يوارب احد فيه دون ان يشعر بنفور في نفسه من نفسه اذا لم نقل باستياء الناس طراً .

ومجلس النواب لم يستحسن هذا التمويه على ما ظهر لنا .
وكنا نود لو عبر عن استيائه بطريقة ايجابية لاسلبية . فقد انبأنا
البرقيات انه عند الفراغ من تلاوة الخطاب لبث النواب صامتين
ولم يفه احد منهم بذلك الدعاء المعروف الذي طالما رددته الامة في
الزمن الماضي . وهذا على ما نظن هو جواب النواب على موارد
العرش وتمويهاته . على اننا كنا نود لو فاه احد الاعضاء على الأثر
بكلمة احتجاج وجيزة . ولكن اذا اظهر المجلس استياءه بطريقة
سلبية فعلى الصحافة وهي خير صلة بين المجلس والامة ان تظهر
ذلك بطريقة ايجابية . على الصحافة ان تبرهن الان على انها
متنبهة متيقظة . وان من حقوقها ان تطالب المجلس والعرش
بحقوق الامة . وان ترد الفضل في نشر المعارف والعلوم الى مكانه
وذويه .



العفو العالى

جاء في الارادة السنية التي قرأها علي جواد باشكاتب المايين .
في مجلس النواب ان « قد صدر العفو العالى عن العساكر الذين
اجتمعوا في هذا النهار (يوم سقوط وزارة الاتحاديين) فلا
يسألون عما فعلوا » وقد علمت الامة جمعا ان من نتائج اجتماع
بل هياج العساكر المتمردة قتل ناظر المدينة وعضو من اعضاء
مجلس الامة . فما معنى العفو ياترى وماذا عسى ان يكون وراء
هذا التسامح الشاهاني الجميل .

ان الاعتداء على احد النواب فضلا عن قتله . يعد اعتداء
على المجلس كله بل على الحرية والدستور بل على الامة بأسرها .
ولكن من يعفو عن انصار الجهل والتعصب اليوم وان عدوا
بالالوف يعفو غدًا عن انصار النور والحرية . اليس كذلك ؟
وان مراحم « جلاله مولانا » لأوسع من السماء . فاصدقاء الدستور
واعداؤه - الاحرار والخوانة كلهم - يقيمون في ظلها الظليل
آمنين . اليس كذلك ؟

ولكن الريب خلة في بعض الناس . ولا غرو اذا وجد في
المجلس من ارتاب بحسن نيات جلاله مولاه فقام يعترض على ما
جاء في الارادة السنية فيما يختص باجتماع العساكر . يوم قتل ناظم
باشا والامير محمد ارسلان . ولا فرق بين ان يصدر المرتابون

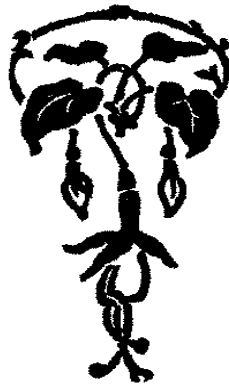
احتجاجهم من المجلس او من المكان المختبئين فيه . فان مجلس النواب في مثل هذه الايام هو حيث يجتمع او بالحري حيث يختبيء النواب .

ومن جميل اخلاق الشرقيين وبالاخص الأتراك ان الشدة وان انستهم واجباتهم المهمة لا تنسيهم فروض اللياقة والمجاملة . فقد قرأنا في صحف الاخبار رسالة تعزية من الرئيس الجديد للمجلس الى والد فقيد الوطن والحرية . ورسالة اخرى على شكلها من الصدر الاعظم فقلت وهل هذا ياترى اهم ما توجه به عليهم الوطنية اليوم ؟ هل هذا ما يتطلبه منهم الدستور وتفرضه عليهم اليمين التي اقسموها ؟ انزال الى الابد عبيد المجاملة والمصانعة . أمثل هذه الدمعة الكاذبة تسر الامة ويتعزى آل الفقيد ؟ اما كان الاجدر بالنواب ان يبعثوا الى المايين كلمة احتجاج على ما جاء في الارادة السنية ؟ فأمثل - ان العفو من شيم الكرام - لا يصح دائماً غداً يهيج الجنود ثانية فيقتلون آخر من النواب فتصدر الارادة السنية بالعفو عن القاتلين . وكلما قتل احد اعضاء المجلس يفر هارباً من يخاف على جلده ولا يخاف على شرفه ويمينه . فلا يمضي والحال هذه شهر واحد حتى تخلو كراسي النواب كلها فينعب فوقها ثانية غراب التقهقر والظلم . ويقهقه تحتها شيطان المكر والخيانة . أمثل هؤلاء النواب تنتصر الحرية ويتعزز الدستور ؟ في عهد لويس السادس عشر قبل انفجار بركان الثورة بسنة

واحدة رفض البرلمان في باريس ان يصدق على قرض اقترحه ناظر
 المالية سداً لعوز الملك والحكومة . فجاء في اليوم التالي لويس
 بذاته وامر البرلمان ان يصدق على هذا القرض فأبى ثانية وقام
 دِسبرينيل فاغلظ الكلام لجلالته وصرح بحقوق البرلمان على
 الحكومة . فخرج الملك ووزيره محتدمين غيظاً وبعد ايام جاء
 الضابط داغوست ومعه فريق من الجند ويبيده امر بالقاء القبض
 على دِسبرينيل فدخل المجلس وقال : جئت بأمر الملك . فقابله
 الاعضاء ساكتين واجمين ثم قال : وبما انني لا اعرف احدكم
 دِسبرينيل اطلب اليه ان يقف لان بيدي امرآ فقاطعه
 الاعضاء قائلين : كلنا هذا الرجل . ولم يقف منهم احد . فخرج
 داغوست وجنوده يومئذ مثلما خرج مولاه ووزير مولاه في
 اليوم السابق .

فان كانت هذه وطنيتهم بل هذه حماستهم وجراتهم في امر
 يعد طفيفاً فماذا ياترى يفعلون لو قتل الجنود احد اخوانهم على باب
 المجلس ؟ ايسمعون العفو عن القاتلين ساكتين ؟ ايكتفون بتعزية
 اقاربه ويوجلون البر بيمينهم الى ان يزول الخطر ؟ اتمتن حرمة
 الدستور وكرامة مجلس الامة . ايعتدى على الحرية وانصارها .
 ايهرق دم النواب على باب مجلس النواب ظلماً وعدواناً فيفر
 الجبناء من الاعضاء هاربين ويظل الباقيون منهم ساكتين ؟ اليس
 الاعتداء على احدهم اعتداء عليهم اجمعين .

امر لويس السادس عشر بنفي دسبرينيل احد اعضاء البرلمان
فاجابه البرلمان بصوت حي : كلنا هذا الرجل . غمست حراب
فريق من العسكر بدم الامير محمد ارسلان فعفا السلطان عن
الجانين وسكت النواب عن عفو السلطان . وكاني بهم يشكرون
الله على سلامة دمائهم الكريمة ! وهذا ايها الاخوان الفرق بين
الشرقيين اليوم والغربيين في مجالسهم النيابية وتجاه ملوكهم .
ان الحراب التي صرعت الامير محمد ارسلان حاولت صرع
الحرية والدستور . بل هي حراب اشربت سم الخيانة من اعلى
مورد في الحكومة . فاذكروا هذا ايها الناس ولا تنسوه ايها
النواب .



الحرية وحدها لا توحدنا

اني ممن يقولون بالطريقة البطيئة الثابتة في اصلاح الاسم والناس . اني ممن يرتأون ان لا خلاص للشعوب من الجهل والجمود والخمول الا بالتهذيب والتربية . وما الثورة عندي سوى امثولة صغيرة في تهذيب النفس وثقيف الاخلاق . لاننا اذا تعلمنا ان نشور على المستبدين والظالمين من اسيادنا نتعلم ان نشور حتى على انفسنا متى كنا من هؤلاء الظالمين والمستبدين . وهذا لعمرى اهم من ذاك . ولكننا لا نحسن نحن السوريين لا هذا ولا ذاك . نحن قوم تعددت في بلادنا المدارس الاجنبية وكثر فينا التقليد والادعاء . كنا بالامس في مقدمة الشعوب بالخنوع للضميم والاستسلام للهوان . وصرنا اليوم في مقدمة طائفة من الناس لا يجر كون في سبيل الامة سوى القصبه واللسان . ومتى كثر في الامة المرشدون والناصحون المتربعون بدست السيادة فبشر تلك الامة بالهلاك . بدل ان تنصحنى ساعدني . بدل ان ترشدني سر امامي . اذا ما الفرق ياترى بين منافق يناهض حاكماً مستبدًا وليس يندد بالصمص والقتلة ؟ ما الفرق ياترى بين متعصب يقول ما اجملك وما اسمك ايتها الحرية وشيطان يتغنى بمدح الملائكة ؟ ان الاثنين عندي سواء .

على انني اجد بوناً شاسعاً بين عالم لا يعلم ان العلم انما وجد

لنفع الناس لا لاثارة الفتن في الناس . ورجل عاش جاهلاً ومات
جاهلاً وكان من آل الفضل في الناس . واني والله لافضل هذا
الجاهل الصادق على ذاك العالم المنافق . اني لأوثر النفس الصافية
الساذجة على نفس متفكّهة لا تعرف من سبل الحياة الا تلك
الموحلة المظلمة ولا من امانى الحياة الا تلك التي يجبل بها دود
الارض وتتغذى بسم الاقاعى . اجل ياخي ان جمّالاً صالحاً او
اسكافاً حراً صادقاً خيراً من الامراء والرؤساء والعلماء الذين لا
يعرفون من الحق والعدل ومن الخير والاحسان ومن الاخلاص
والفضل الا اسماءها .

اننا اليوم الى التهذيب لاحوج منا الى السكك الحديدية
والتلفونات . ان حاجتنا الى العلم الصحيح الذي يهذب الانفس
ويرقى العقول ويرثقف الاخلاق لاشد منها الى العلوم اللغوية
والفقهية واللاهوتية والخنفشارية . والتهذيب الصحيح ينبغي
ان يعم عناصر الامة باسرها على السواء ليأتي بفائدة تذكر للامة .
وعندي ان اشد الويل والبلاء انما هو في بيت يعيش تحت سقفه
الجاهل والعالم معاً . ان هذا البيت ووطننا ايها الاخوان . وعناصر
الامة فيه كافر ادناقت اذواقهم واخلاقهم وتمعددت صبغاتهم
القومية والدينية وتباينت فيهم درجات المدارك والعلوم . فاذا
ارتقى عنصر من عناصر الامة دون سواه يلتجى . غالباً الى المهاجرة
اذا ظلت العناصر المنحطة واقفة في طريق ترقيه كالسد في وجهه

المياه . اما الاية . ورب فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة . فالتاريخ لا يشهد على صحتها الا مرة في الالف . لان الطبيعة لا تسمح ان تكون المعجزات فيها مبتذلة . والغالب المبتذل هو ان الاكثوية ان كانت في المجالس النيابية او في الطبيعة تتغلب على الاقلية . على حكومتنا الدستورية اذا ان تنبته الى هذا الامر الخطير ان كانت ترجو ان ترتقي الامة وتحيا . على حكومتنا ان تباشر تأسيس المدارس الوطنية العمومية الاجبارية المجانية المجردة عن كل صبغة دينية . وان كانت لا تباشر قريباً فلا ترجو يا اخا الحماسة كبير خير من هذا الانقلاب . ومن هذا الدستور . ومن هذا المجلس النيابي .

اظنك تعلم ايها القارىء العزيز ان لا غاية لي من الكتابة والخطابة والتأليف سوى نشر المبادئ الحرة والتعاليم السديدة في الامة . وان من تجرد عن المآرب السياسية وعن الاغراض الشخصية المادية يرسل كلمته في الناس دون ان يراعي خاطر احد من الناس . منذ خمس سنوات عدت الى وطني من العالم الجديد وحتى الآن ما عرفت من الرؤساء المدنيين والدينيين الا من احب ان يعرفني او من جمعتني به التقادير . قضيت هذه المدة كالميميداً عن الرئاسة والسياسة فبان لي ان في طاقة الانسان ان يعيش سعيداً دون ان يتزلف من السياسيين والامراء او عمال الحكومة والرؤساء . نعم عشت محروماً هذا الشرف العظيم

فكانت همومي الادبية ومتاعبي السياسية اقل من هموم سواي من الادباء .

عسى ان يعذر القراء مني هذه الكلمة الشخصية . فما قلتها الا لابني عليها قاعدة عمومية هي جديرة باعتبار كل من زاول صناعة الكتابة واحب ان ينفع الناس بعلمه وادبه . ان التقرب من العظام وبالاخص اصحاب السيادة منهم يفقد الكاتب غالباً مزية الحرية والاستقلال . هذه هي القاعدة العمومية التي قلت من اجلها كلمتي الشخصية . تكلمت عن نفسي وما كنت لافعل ذلك في غير هذه الاحوال لا و كد لكم ايها الاخوان ان الاراء التي ابدتها والمبادئ التي انادي بها انما هي ثمرة علم لا يعرف التفرقة والتحزب ولا يفرق بين الجنسيات والاديان .

احب ان اردد بعد هذا التمهيد كلمتي السابقة عن المدارس الوطنية واردفها بكلمة ليست باقل منها اهمية وهي « صيحة في واد ان ذهبت اليوم مع الريح تذهب غداً باللاوتاد » ان الامة العثمانية لا تصير حقاً امة واحدة متحدة راقية الا اذا تأسست في البلاد المدارس الوطنية العثمانية المجانية الاجبارية وتلقن فيها العلوم ابنا المسلمين وابناء الدهريين وابناء المسيحيين وابناء اليهود معاً . بقي عليّ ان اقول كلمتي الاخرى . اننا لا نصير امة راقية حرة بكل معنى الكلمتين الامتي متى صار ادباء المسيحيين وادباء المسلمين يتباحثون في اي موضوع دينياً كان او سياسياً

او اجتماعياً دون ان يشير ذلك في شعب الملتين غبار الجهل وسموم التعصب . بل اذا كان لا يحق للمسلم ان ينتقد المسيحيين في شؤونهم العمومية والاجتماعية ولا للمسيحي ان ينتقد المسلمين فلسنا والله بامة واحدة وليس وطننا بذاك الوطن المجيد الجامع الذي يعبد في هيكله كل ابنائه على اختلاف المذاهب والعناصر والجنسيات . بل اذا كنا لانتجرد عن صبغتنا الدينية في شؤوننا الوطنية والاجتماعية فحريتنا ايها الناس كلمة مقولة . واخواننا لفظة غير معقولة . والمساواة عندنا قاعدة باطله مرذولة .

نعم يا سيدي . اذا كان اخواننا المسلمون لا يساعدوننا في نشر التعاليم الحرة في الامة . اذا كانوا لا يؤيدون قولاً وفعلاً اراء ابااء الحرية والدستور . اذا كانوا لا يرددون صدى احرار المغرب وعلماؤه ومن ينحو اليوم في الشرق نحوهم من الاحرار الاصفياء والعلماء فعبثاً يحاول ابطال الدستور والحرية تجديد حياة الامة والمسلمون العنصر الاساسي في الامة . واما انتصار الجيش فلا مجد عظيم فيه ان لم يتبعه انتصار في العلم والتهديب . لان الجيش وان دمر معاقل الحكومة الاستبدادية فنصره لا يزيل الجهل الذي اُست عليه تلك الحكومة . وما دام الجهل سائداً في الامة . سيان عندي ان كانت الحكومة فردية استبدادية او حرة نيابية . ان لم تباشر الحكومة في تدمير حصون الجهل اذاً يعود الجهل فيدمر حصون الحكومة . ولا يتم لها ذلك الا في

تأسيس المدارس العمومية الوطنية مجردة عن كل صبغة دينية حيث اولاد المسلمين والمسيحيين واليهود والدهريين يتلقنون كلهم العلوم على استاذ مدني واحد وتحت سقف واحد ومن كتاب واحد وعلى طريقة وطنية واحدة . وما هذه ببدعة اناذي بها . فان مكتب الصناعة في هذه المدينة أسس على هذه الطريقة الوطنية وحذا لو احيته اليوم الحكومة فيكون مثالا للمدارس العثمانية العمومية الاجبارية . وعبثاً نحاول توحيد العناصر المتعددة في الامة اذا كان التعليم لا يوحد على هذه الطريقة الوطنية الجامعة الحرة .

جلست مرة في قهوة من البحر اتفرج على الناس يسبحون . تأملتهم في تلك الحالة الطبيعية وقد تجردوا عما يميز بعضهم عن بعض وقلت في نفسي : اين المسلم الآن واين اليهودي واين الكافر واين المسيحي ؟ رأيتهم يسبحون كلهم في بحر واحد تحت سماء واحدة وهم لا يستنكفون من امواج تلعب حول قلوبهم كأنها قلب واحد وتغسل اجسامهم كأنها كلها جسم واحد . فقلت في نفسي متى ياترى تصير عقولنا مرنة نشيطة قوية كاجسامنا ؟ متى تصير انفسنا كامواج هذا البحر فلا تخضع الا لناموس واحد هوناموس الله ؟ او في الاقل متى تصير متساهلة كابداننا فتسبح في بحر الاداب الواحد وتحت سماء العلوم الواحدة دون تنافر ودون شقاق ا نظرت الى البحر وانا جالس في تلك القهوة فرأيت هناك

المدرعات الحربية الاوروبية ومنها المدرعتان الافرنسيتان
« لافريته » و « فكتور هوغو » فكرهت الاقامة في بلاد لم ترل
تحتاج فيها الى مثل هذه المظاهر الكاذبة . وهل كنا نشاهد
المدرعات الاوروبية بصفة رسمية في بحرنا لو تأسست عندنا
المدارس العمومية الوطنية منذ ثلاثين سنة ؟ هل كانت تلتطخ
المذابح تاريخنا فتلحق بنا وبوطننا العار والشنار لو وجد منذ
ثلاثين سنة التعليم فنمت في قلوب العثمانيين عاطفة وطنية شاملة
وانتشر روح التساهل الديني في الامة ؟

لا يا اخوتي . انا لا احب ان ارى هذه المدرعات على شطوط
بلادنا . انا لا احب ان يلتجئ احد عناصر الامة الى دولة اوروبية
انا لا احب ان ارى « فكتور هوغو » في بحر بيروت بل احب
ان اشاهد روح فكتور هوغو متجلية في ارواح ابناء بيروت .
لا احب ان ارى « الحقيقة » على شواطئ سوريا بل احب ان
اراهها في قلوب ابناء سوريا . احب ان تحمينا المبادئ السديدة
لا المدافع والمدرعات . احب ان يحمينا العلم الخالص من الغش .
والوطنية المجردة من كل مصلحة دينية



رجل الشعب

قد مضت السنة الاولى من عهد الدستور وما ولدت حرية اللبنانيين الا الكلام . وماذا ياترى يلد الكلام وبالاخص ما كان كاذباً فاسداً مبرقشاً من الكلام ؟ قد انقضت السنة الاولى من عهدنا الجديد ولم يظهر فينا رجل جري، حر صادق . رجل عزوم ثبتت سكوت يعمل من اجل هذا الوطن عملاً واحداً صغيراً دون ان يستشير فيه كيسه او منصبه السياسي . دون ان يلتجى الى القناصل . دون ان يستعين ببكركي التي اصبحت هيكلها في جمعية الاتحاد والترقي في بيروت . ببكركي وبطيركها اليوم فيلسوف تركي يحسن العبادة والصلاة مثلما يحسن العدل في السياسة والاحكام . ولكن هو لا، اللبنانيين الذين يسجدون لشقيعتهم وهي في زي تركي اوروبي جديد وينادون في الجبل بالمحافظة على امتيازات لبنان هو لا، يحدفون في قلوبهم اذا صلوا ويموهون وينافقون حيثما سقطوا وحلوا . هو لا، لا يستحقون بركتاك يا صديقي البطيرك . هو لا، قوم مدغلون . والمدغل والمؤمن لا يجتمعان .

وما قولاك ايها الرفيق العزيز ! اتظننا نجد رجل الشعب بينهم ؟ اتظن البحث عنه في هذا المكان يحدينا نفعاً ؟ ألا اتظننا نصرف زيتنا شدي في مثل هذه الظلمات ؟ اجمل سراجك اذاً واتبعني .

من هيكل الحرية العثماني الى الهيكل اللبناني فرسخ او فرسخان. تعال اذا علنا تفوزها بضالتنا المنشودة . ادخل وسرح نظرك في هذا المعبد الجليل الذي شيده قبل الدستور البناءون . وهؤلاء البنائون لا يتعشقون الا كليروس كما تعلم على انهم لا يكرهون الثوب الكهنوتي الذي يلبسونه في دور الرئاسة دائماً وفي دور السياسة عند ميسس الحاجة . هؤلاء الاحرار الكرام وفيهم من الشبان العالم والمصلح والحكيم وفيهم ايضاً من يحتاجون الى كثير من العلم والاصلاح والحكمة يعبدون الحرية فوق كل شي . ويفادون اليوم وغداً بكل لبنان من اجلها . فان كان فيهم من يستحق ان يكون زعيم الشعب الا تظنه يلبس الارجوان ويغطي اذنيه بقلنسوة من حرير اذا تبوأ غداً كرسي الزعامة . دعنا من المجاز . الا تظنه وان كان رجل الشعب اسماً يكون فعلاً رجل البنائين ؟ هل انت من رأبنا . او لا تشق بهؤلاء الشبان المصلحين ؟ تعال اذا نطلب رجل الشعب بين شيوخ لبنان واعيانه نحن الان في كنيسة الجامعة اللبنانية وفيها هيكل كبير في الصدر لشفيهم « مار نظام » له المجد . وهيكلان صغيران الى جانبيه للحرية والاخاء . وما قولك بهذا المجمع الجامع اللامع . هؤلاء هم اسيادنا اللبنانيون الصادقون . هؤلاء هم الوطنيون الطاهرون الذين يبيعون املاكهم كلها ليحافظوا ان اقتضى الامر على امتيازات لبنان . هؤلاء هم الابطال الذين يشترى النظام

الجليل الثمين بدمائهم ودماء اولادهم ونسائهم . ايريبك قولنا ؟
 الا ترى فيهم الامير والشيخ والوجيه والصحافي واليكاهن
 و « الكرخنجي » ؟ ومن من هؤلاء لا يبذل النفس والنفيس
 من اجل « مار نظام » العزيز ؟ من منهم لا يحمل « المارتيني » اذا
 اقتضى الامر دفاعاً عن وطنه وحباً بامتيازات وطنه ؟ الا تظن
 هذا « الكرخنجي » يصلح ان يكون رجل الشعب وهو اقرب
 الناس الى الشعب واعرفهم به واكثرهم انصافاً له ؟ او لا تظن ان
 هذا الخبر المفضال وهو اشدهم شغفاً بحب الشعب الذي بظن الربة
 في رأسه طوقاً مقدساً من سيدة حريصة او هذا الامير
 ما بالك تضحك ؟ الا ترى رجل الشعب بين هؤلاء الاسياد
 الغطاريف ؟ اتظنهم كلهم مثل اخوانهم الذين يعبدون سيدة
 بكركي في هيكل الاتحاد والترقي ؟ - اتبعني اذا .
 هذي هي سراي الحكومة . تريد ان تدخل ؟ اتقول لا ؟
 وانا من رأيك . لماذا نضيع وقتنا وزيتنا سدى ؟ اشعل السراج
 اذا وتقدم .

أتخيفك هذه الظلمات . نحن الان في قرى لبنان وقد خيم
 الليل والسكوت . اما هذا النور الضئيل الذي تشاهده في كل
 قرية فهو نور الجمعيات التي تضم اليها اليوم كل من استفاق
 مؤخراً من نومه وشفى قليلاً من مرضه . فهل تظننا نجد رجل
 الشعب فيها واعضاؤها على الحالة التي وصفناها ؟ امش اذا ولا

تياأس . قد يكون رجل الشعب في حقوي هذا الفلاح صاحب
العبادة المرقعة . وقد يكون كامناً في احشاء تلك الفلاحة التي
سلمت علينا . تباركت ثمرة بطنك ايتها الاخت الفلاحة . وتبارك
من يعرفها ويكرمها متى ظهرت في الناس لتقود وتهدي الناس .
الوداع ايها الرفيق فقد صرفنا بعض الوقت والزيت في البحث
عن رجل الشعب ولم نصرفه باطلاً .

اما الان فقد مضى العام على عهد الحرية عندنا واللبنانيون
يجمعون ويخطبون ويتباحثون ويتشاكون وينادون - بماذا ؟
بلاشيء . وينددون ويؤلفون الجمعيات والاحزاب والوفود .
ويحلون العقد والمشكلات بالتمويه والمسايرة والوعود .

مضى عام على حريتنا ولم يمض معه شيء من خمولنا ومصانعنا
ورخائنا . ومن شقاقتنا وادعائنا وعبوديتنا . مضى العام الاول على
الدستور واسبادنا الاحرار هم اسبادنا بالامس والشعب هو ذات
الشعب المفلوج الضير الذي قضى حياته في ظلمات الجهل والعذاب .
الشعب المفلوج الضير ماذا تنفعه الحرية والنفس فيه صماء .
الشعب الضير المفلوج ماذا يفيدته قولك له « انا من الشعب انا
رجل الشعب » . ان كنت من الشعب يا هذا فاسفي عليك . ان
نفسك مفلوجة ضرية . وان كنت رجل الشعب فبربك قل لنا
كيف تعالج الفالج وكيف تداوي العماء . فان كان عندك دواء
نافع فهاته . هاته باسم الله . داو هذا الشعب بل هذه الامة . داوها

شامت او لم تشاء . داوها وان اضطرك ذلك الى تقييدها ليلة
ونهاراً او سنة وسنتين لتشفى . داوها بالسيف ان كنت تتأكد
انها بالسيف تبرأ .

ان كنت رجل الشعب ايها الزعيم المحبوب . ان كنت واثقاً
ان العنارة الالهية اختصتك لتكون طبيب هذه الامة فلا تنتظر
من الصحافة شهادتها ولا من الحكومة فرمانها . ولا تنتظر ريثما
الاساس يسمونك ويرشحونك وينتخبونك - وبعد ذلك
يرذلونك . .

ولكن قبل ان تنادي : « دواء للفالج دواء للعين » أرني ان
شئت ما في خرجك . ما هذه المراهم والنباتات ؟ أليست التي
يتاجر بها « المغربي » ذاك الذي درس الطب ثلاثين سنة في مغارة
دانيال ؟

ألا تعرف « المغربي » ؟ أما رأيته في زمانك راكباً كديشه
وصيدليته في الخرج وراهه ؟ أما سمعته يتنادي : دواء للراس دواء
للعين ! ان اعشابك من اعشابه ايها الزعيم العزيز ومراهمك هي
نفس مراهمه . فالأصلح لك وللامة اذا ان تبيع كديشك وترجع
الى بيتك .

تبغ وملح للفالج والعماء ! سبحان الهادي . أتظن يا زعيمي
المحنك المبنك ان زرع التبغ واستخراج الملح يشفيان فالج
النفس وعماءها ؟ أتظن ان التبغ والملح يستحيلان نوراً وهداية

في قلوب اللبنانيين ؟ أتظن ان المال في صندوق الحكومة يصلح
الشؤون اذا لم يكن في الحكومة . من يعرف كيف يستخدم
المال لخير الامة الادبي الروحي قبل خيرها المادي ؟ رح في سبيلك
ايها المداوي اللاوي وقيل ان تكرهنا او تنسانا اذكر منا هذه
الكلمة : خير لك ان تكون حمالاً او سكافاً من ان تكون
مشعوذاً .

ان بلاءنا ايها الاخوان من (مغاربة) السياسة الذين درسوا
المداواة ثلاثين سنة في مغارة دانيال وخانيال وناققيال وشركاؤهم .
ان بلاءنا من المصلحين الذين لا يصلحون انفسهم . ان بلاءنا من
المشعوذين المدغلين الذين يسجدون في الهيكل التركي لسيدة
بكركي . بلاء الشعب من اسياده الذين لم يزالوا يسخرونه
ويرهقونه . بلاء الشعب من الذين اورثوا الشعب الفالج والعماء
وجاءوا اليوم يتحببون اليه ليداووه : دواء للفالج دواء للعين !
ورب السموات ان كنت لا تطرد « المغربي » من بيتك يا اخي
وترمي باعشابه الى النار تموت ولا شك مفلوجاً ضريراً .

من المبكيات المضحكات ان تسمع اليوم من يتساءلون :
ومن ياترى يستحق ان يخلف رجل الشعب ؟ هنيئاً لك يا رجل
الشعب . فقد ارتحت في الاقل من المناذاة : دواء للفالج دواء للعين !
ومن دانيال وخانيال وناققيال الذين لا يريدون ان تداوي شعبك
بغير المراهم الفاسدة والاعشاب السامة .

لا يا اصحابي لا يا سيادي . ان رجل الشعب الحقيقي لا ينتخب ولا يعزل ولا يقاوم ولا يموت . ان روحه تظل حية وعاملة في الامة بعد ان يقف نبضان قلبه . ان اعماله لا تموت اذا غرست في قلب شعب حي قوي . اعصابه سليمة ونظره سليم . ان اعمال الرجل العظيم كنهر يتدفق من اعالي الجبال في اودية الهيئة الاجتماعية وسهولها . ولا يكاد يخف ماؤه او ينضب بعد سنتين او بعد عصور طوال حتى يبعث الله رجلاً اخر عظيماً فيحيي فيه الارواح التي تلاشت على ضفتي النهر الابدي . اليس من المضحكات اذا ان نتساءل : ومن ياترى يخلف رجل الشعب وهل تظن ان الزعيم الثابت الحر الصادق كقالة اكتبها بساعة او بيوم فتقرأها وتفهمها بنحس دقائق ؟ ألا يخطر في بالك ان لو كان صنع الرجال العظام امراً سهلاً لكان يلد في العالم رجل عظيم كل يوم ؟ أتظن ان ارادتي وارادتك وارادة من هم اكبر مني ومنك . قناصل كانوا او بطاركة . بل ارادة الملوك والسلاطين تجعل « المغربي » حكياً والمشعوذ زعيماً ؟ أتظن ان في امكان الاحزاب ان تصنع الزعماء كما يصنع الخزاف اناؤ ثميناً او الصبغلي درعاً متينة اذا كنت تعتقد هذا الاعتقاد ولا تنبذه سريعاً نبذ النواة فسيرك ومسير اتباعك وعبيدك الى الهلاك . اذا كنت لاتصرع اعتقادك الفاسد يا اخي فاعتقادك يصرعك . اذا كنت تظن يا صاحب السعادة بل يا صاحب الدولة بل يا صاحب الجلالة ان زعيم الناس

كانا من الفخار تصنعه كالفخاري بساعة واحدة وتكسره ان شئت بضربة واحدة فانت اما مخطىء واهم واما جاهل مكابر . وفي كلا الحالين لا خير فيك لوطنك او لنفسك لا في اقوالك ولا في اعمالك . الزعيم الحقيقي يامولاي هو من السماء ونصره وكسره في يد الله . ينبغي لك اذا ان تصلح عقيدتك قبل ان ترفع في سبيل الاصلاح عقيرتك . ينبغي لك ان تبمع كديشك وترمي بخرجك وعقاقيرك الى النار وتقرأ في كتاب الحكمة والزعامة على عالميال وصادقيال لا على ما كريات وناققيال .

ان لبنان اليوم لفي حاجة الى بطل حقيقي لا الى رجل او نصف رجل او ربع رجل او لا رجل يدعى زعيماً . نحن في حاجة الى من يستطيع ان يجمع شتات هذا المليون من ضعفاء بل من بؤساء البشر . نحن في حاجة الى بطل يحكم هذه الامة ويهدها سواء السبيل . وهل تظن ان الطبيعة في لبنان تضن على ابنائه بمثل واشنطون او ابي بكر او كرمول ولو في شكل صغير ؟ يشهد تاريخنا انها لم تضن علينا بالابطال في الماضي . وتشهد سماوتنا وتشهد شمسنا انها لا تضن بهم في المستقبل .

وعندنا ان مثل هذا الزعيم العظيم يباشر اصلاح الجيش فيضاعفه وينظمه قبل كل شي . ثم ينظر الى الشعب المفلوج الضرير فيداويه بغير زرع التبغ واستخراج الملح وتأليف الجمعيات في القرى . لا ننكر ان هذه كلها لازمة مفيدة . ولكن الالزم

اهم . وعلى الاثرم تتوقف اليوم حياتنا . ان ابا بكرنا ياسيدي
الامير لا يصيح كالمغاربة : دواء للفالج دواء للعين . لكنه يقبض
المبضع بيد من حديد ويشغل باسم الله . ان واشنطوننا بعد ان
ينظم جيشه ينظر في البلاد الى من كثرت اموالهم وقلت اعمالهم
كالرهبان مثلاً فيحاسبهم بعدل وانصاف ويبني بما يأخذه منهم
المدارس العمومية في كل القرى . والمدارس الزراعية الصناعية
في كل الاقضية . هذا هو دواء الطبيب الصادق الماهر لفالج
النفس وعمائها .

مثل هذا الرجل اذا دخل مجلس الادارة ورأى الاعضاء
يدخنون الاركيلة وينعمسون يطردهم قائلاً : « الى بيوتكم . دخنوا
هناك وناموا الى الابد . واذا كان اللبنانيون لا ينتخبون من
لا يدخن ساعة العمل وينام فانا انتخبه انا اعينه . واذا رأيت
يدخن بعد ذلك في المجلس اكسر والله الاركيلة على رأسه »
بمثل هذه اللهجة كان كرمول يكلم مجلس نواب الانكليز .
ولما رأى ذات يوم ان قد استفحل امرهم معه اخرج ساعته من
جيبه ورمى بها الى الارض قائلاً : « ان لم تستقيموا احطمكم
مثل هذه الساعة » وبعدئذ طردهم وقال « اريد في المجلس اناساً
صادقين عادلين »

مثل هذا الزعيم اذا تصدى له اولئك الافاضل المحنكون
المبنكون الذين ترسلهم الدول الاوروبية ليتعلموا عندنا السياسة

نعم يا اخوتي نعم يا سيادي . اني اؤكد ان السماوات والارض
 في لبنان لا تضمن علينا ببطل لبناني في المستقبل . ولكن متى
 يظهر واين . . ؟ ان نبوءتي لا تتجاوز هذا الحد .

والسلام عليك يا ابنة لبنان .

تباركت ثمرة بطنك ايتها الاخت الفلاحية . تباركت في
 احشائك جرثومة الابطال . وتبارك من يراها ويعرفها ويمجدها متى
 ظهرت في الناس لتقود وتهدي الناس .



الشعر المنثور

يدعى هذا النوع من الشعر الجديد *Vers libres* بالفرنسية وبالانكليزية *Free verse* اي الشعر الحر او بالحري المطلق وعموماً آخر ما اتصل اليه الارتقاء الشعري عند الافرنج وبالاخص عند الاميركين والانكليز . فملتن وشكسبير اطلقا الشعر الانكليزي من قيود القافية وولات وتمن *Walt Witman* الاميركي اطلقه من قيود العروض كالاوزان الاصطلاحية والابجدة العرفية . على ان لهذا الشعر المطلق ورثاً جديداً مخصوصاً وقد تجي القصيدة فيه من ابجر عديدة متنوعة .

وولات وتمن هو مخترع هذه الطريقة وحامل لوائها . وقد انضم تحت لوائه بعد موته كثير من شعراء اوروا العصرين . وفي الولايات المتحدة اليوم جمعيات «وتمنية» ينضم اليها فريق كبير من الادباء المغالين بحاسن شعره الخلية المتخلفين باخلاقه الديمقراطية المتشيعين لفلسفته الاميركية . اذ ان شعره لا تنحصر مزايه بقالبه الغريب الجديد فقط بل فيه من الفلسفة والتدور ما هو اغرب واجد

الثورة

ويومها القلوب العصب . وليلها المنير العجيب .
 ونجمها الاقل يحدج بعينه الرقيب .
 وصوت فوضاها الرهيب . من هتاف ولب ونحيب . وزئير
 وعندلة ونعيب

وطغاة الزمان يسامون نارا . واخياره يحملون الصليب .
 ويل يومئذ للظالمين . للمستكبرين والمفسدين .
 هو يوم من السنين . بل ساعة من يوم الدين
 ويل يومئذ للظالمين .

* * *

هي الثورة ويومها العبوس الرهيب .
 الوية كالشقيق تموج . تثير البعيد . تنير القريب
 وطبول تردد صدى نشيد عجيب .
 وابواق تنادي كل سميع بحبيب .
 وشرر عيون القوم يرمي باللهيب .
 ونار تسأل هل من مزيد . وسيف يحجب . وهول يشيب .
 ويل يومئذ للظالمين . ويل لهم من كل مرید مهين
 طلاب للحق عنيد مدين . ويل للمستعزين والمستأمنين .
 هي ساعة للظالمين .

هي الثورة وابناؤها الحفاة . وصبيانها المسترجلون العتاة .
 ورجالها الأشداء . الأباة . ونسائها المتنمرات .
 وخطباؤها وخطيباتها الفصيحات . وزعمائها وزعياتها المتمردات
 ويلٌ يومئذٍ للظالمين .

انذرهم باغلال وسعير . بقنابل تفجر ويوم عسير .
 يوم لا ينهون ولا يأمرون . ولا يطلقون فيهربون
 ويلٌ يومئذٍ للظالمين .

* * *

الم يأتيهم حديث الرومان .
 يوم شخف قيصر^(١) بالارجوان . ومد يده الى الصولجان .
 فاذا هو صريع احرار ذاك الزمان . قتيل مهان كثير الطعان .
 ويلٌ يومئذٍ للظالمين .

* * *

الم نقص عليهم قصص باريس .
 يوم دك البستيل وزفت المحابيس . يوم قطع رأس الملك لويس^(٢) .
 وحزت رقاب كبار الفرنسيين . وفرّ الطاغون من هول باريس .
 ويلٌ يومئذٍ للظالمين .

* * *

(١) يريد يوليوس قيصر وروايته مشهورة (٢) لويس السادس عشر

ونبأ الانكليز .

يوم بايع القوم بياع الجمعة^(١) وقالوا هذا ولي عزيز .

يوم نادى الخمار بالناس والملك في حرز حرز .

فاذا بالمستضعفين اشداء وشارل المليك ذليل نبيد . بل على المشنقة يستميد

ويل^١ يومئذ للظالمين . من كل متمرد متمرّد مدين .

ويل^٢ يومئذ للمفسدين . من نصر البنود الحمر المبين .

* * *

ونبأ العالم الجديد .

الم يروا لهيب الاتون في العالم الجديد . حيث يطرح كل جاز مرید

حيث يحرق الارجوان وتذوب تيجان الحديد .

حيث تحرر العبيد . ويموت الناس من اجز هولاء السود المناكيد

حيث قام الاذل على الاعز . والوضيع على الجبار العنيد .

ويل^٣ يومئذ للظالمين . يوم يمتع الله المستعبدين .

ويطلق في الشعوب سلطان روح كمين . بل يضرم من ناره البراكين

بل يثير في الجموع روح الامين . روح كل زعيم صادق امين .

يوم ليرث المظلوم سيف الظالم الاثيم .

ويذيق المفسدين حرّ عذاب اليم . في هذه الارض لا في الجحيم .

ويل^٤ يومئذ للظالمين . من كل متمرد متمرّد مدين .

ويل^٥ يومئذ للمفسدين . من نصر البنود الحمر المبين .

(١) كرومويل وهو زعيم الثورة الانكليزية التي انتهت بقتل شارل الاول

ريح سموم

وبربك القيوم . ما الذي تظنه يدوم ؟
صوت سمعته في الكروم . وقد مرت عليها ريح سموم . نجفت
الارض وعادت جزرة كثيرة الكلوم .
سقطت الجفان عن فسانلها وفزعت اوراقها الى الغيوم .
صوت صارخ في صفوف النجوم . ما الذي تظنه يدوم ؟

* * *

من صروح زاهية فخيمة . من رياض زاهرة كريمة . من بروج
شاهقة عظيمة . من معامل حديثة او قديمة . ما الذي
تظنه يدوم ؟

من انفاق منورة تحت الانهار . من ارتال فيها يدفعها الكهربا .
او يجرها البخار . من بوارج ماخرات في البحار . من
اساطيل تنذر بالدمار . من معالم ومعاهد في الامصار .
ما الذي تظنه يدوم ؟

من انفاق تحت الاديم ملوؤها عجاجه . تنفثها وتشيرها القطر
الولاجه . من قباب بين السحاب وهاجه . ما الذي
تظنه يدوم ؟

من جسور فوق المياه جسيمة . من جزائر على المياه عظيمة . من

جبال تحت المياه قديمة . ما الذي تظنه يدوم ؟
 من سدود محكمة منيعة . من خلج كونتها الطبيعة . من ترع
 تولى بين البحار . وتجمع بين بعيد الاقطار والامصار .
 من خطوط حديدية تطوق الارض . من اسلاك برقية
 تطوي المسافات في الطول والعرض . ما الذي تظنه يدوم ؟
 من ابنية ذات الطبقات العشرين . من احياء في المدن الكبرى
 يأوي اليها جموع البائسين . من معابد وبيع لا اثر فيها
 للدين . من اصقاع لا صوت فيها للاحرار الصالحين .
 ما الذي تظنه يدوم ؟

من قصور مكنتفة برياض خضراء . من صروح الملوك والامراء .
 من دور الرؤساء والاغنياء . من اكواخ البوئساء
 والفقراء . ما الذي تظنه يدوم ؟

من شرائع وديساتير ونظامات . من تقاليد وعادات وخرافات .
 من اديان وعقائد وخزعبلات . من دول وممالك
 وحكومات . من احزاب وطوائف وجماعات . ما
 الذي تظنه يدوم ؟

صوت صارخ من وراء الغيوم . صوت ريبح سموم . اي شيء
 يدوم ؟

مهلاً مهلاً . انها كلها صالحة في ذاتها . انها كلها حسنة في وقتها .
 لكل شيء . من العز والمجد اركان . لكل شيء . من ابناء البطر

والاشراعوان . لكل شيء . برهة من دهره الوسنان
ساعة او عام او قرن من الزمان . الطويل من الدهر في عين الازل
والقصير سيان .
فلا تظنها الى الابد تدوم . لا وربك القيوم . مبدع الشمس
والنجوم .

الى حين ياخي الى حين . كل ما في العالمين . اي ورب العالمين .
الى حين . وبعد فقل لي هل انت من الممترين . هل
انت من القائلين السائلين . وبعد ذلك وبعد حين ؟
أما في زمانك تأملت المغاور في الصخور . فاذكر ان الامطار
والرياح تكونها . والامطار والرياح تهدمها .
ان كل ما هو محترم معبود . من اضاليل الزمان والجدود . يظل
في حرز حريز الى ان يظهر في الناس رجل عظيم عزيز .
بطل تجود به الايام . فيصرخ في وجه الائمة والحكام . صرخة ترددها
البحار والآكام . وهو قائم على المظالم البشرية . مناضل
عن الحقيقة والحرية . باذل مهجته في سبيل الانسانية .
اجل ان كل شيء . لحريز في موضعه حصين . الى ان يزلزه رجل
حصيف رشيد . او امرأة عظيمة ذات رأي سديد .
ومهما كانت حصونكم متينة منيعة . فساعة الزلزال والدمار شديدة
سريعة .

ساعتئذ يتحدث الركببان في صنيع لأحد العظام جميل . او عمل
 لإحدى العظييات جليل .
 اجل ان كل شي . لحر يز في موضعه حصين الى ان يقف امام القوم رجل
 صالح ذو رأي سديد . حر فصيح عنيد . او امرأة
 صالحة ذات رأي سديد . حرة فصيحة لسانها من حديد .
 يومئذ يعلو صوت المطالب بحقوق المستضعفين المستذلين المستعبدين .
 صوت الامناء والامينات من زعماء وزعيمات على كل
 ظالم جبار مهين .

* * *

وبعد ان تلاشت رياح السموم . تلاها نسيم العليم الرحيم . فدخلت
 في اثره غابة من الصنوبر كثيفة الظلال . وسمعت من
 خلال الاغصان . صوت المحبة والمعروف والحنان .
 سمعت صوتاً يقول : ورب الاكوان . لا يدوم الا الاحسان
 والعرفان . لا يدوم الا السجايا الروحية الفريدة .
 سجايا النفس البشرية الخالدة .
 لا تدوم الا آثار النهضات الجليلة . وما اثر الانفس السامية النبيلة .
 وما اسخف الجدل والمنطق والبرهان امام مشروع جليل . وما
 او هن التعاليم الوضعية تجاه خطب جسيم . وما او هي
 الاقوال والاراء اذا قوبلت بنظرة من رجل عظيم .
 او صادفت نفحة من نفحات حكيم .

عند ما يرفع مثل هذا البشر رأسه وصوته ولا فرق عندي رجلاً كان
 • او امرأة يقف دولاب الاعمال • ولا يبقى شي على حال •
 عندئذ يبطل الجدال • وتنكسر شوكة المال • وتحشر الرجال •
 وتكبر الآمال •

يومئذ تنقلب المجتمعات • وترتعد فرائص الطغاة الحفاة •
 يومئذ تنقلب العادات والعبادات • وتهب على الارض الذاريات
 • السافيات •

فيسأل السائل من وراء النجوم : اين مالكم ونفوذكم وشوكتكم •
 اين تقاليدكم وطرانقكم ولاهوتكم • اين شرانعمكم ودساتيركم
 وحكوماتكم • اين حصونكم وصروحكم وسجونكم
 وجنودكم • اين مصانعمكم ومعاهدكم • اين زخرفكم
 وسفاسفكم ؟

فقل ان هي الامدة من الدهر الوسنان • ساعة او عام او عصر
 • من الزمان •

قل ورب الاكوان • لا بقاء لما سوى الجد والعرفان • والمعروف
 • والحب والاحسان •

فهي هي الجبال الراسيات • وهي هي الحصون الواقيات • وهي
 • هي الباقيات الصالحات •

بلى ورب السماء والنجوم • لا يفلح المستكبر الظلوم • ولن تدوم الا
 • اثار النفوس الزكية السامية • ووجه ربك الحي القيوم •

تحت الرماد وفوق النجوم

- تحت الرماد وفوق النجوم . ما لا يرى من حياة تدوم -
 رأيت فضيلة اليوم تجر اذيال الفجر والتبجح في شارع الرياء وفي
 ازقة الورع والقداسة فكرهتها نفسي .
 ورأيت ما يسميه الناس رذيلة تقضي حياتها في ظلمات السكون
 والكتمان . وراء ستار الخمول والنسيان فحن اليها
 فوادي .
 لم اذا نبغض الاشرار . ولم اذا نعبد الابرار .
 لماذا نميل وجهنا عن الفقراء الاذلاء . ونعقره امام الاغنياء والامراء .
 ان علية القوم اوظاهم ايها الاخوان فاحذروا من تكرهون ومن
 تحبون . من تحتقرون ومن تجلون .
 وغدا ينير الله قلوبكم فتعرفون الحق وتعبدون .
 لا والله انالا اشمخ بانقي على الصعلوك ولا اعفر وجهي امام الملوك .

— ان تحت الرماد وفوق النجوم • ما لا يرى من حياة تدوم —
 اعلموا ان الكل في عيني سواء • من الوجهة التي انظر منها الى الناس
 كيف لا وتحت رماد نفس هذا الشرير جذوة خير حية • وفي بستان
 ذاك الصديق كثير من الجذور السامة والنباتات الكريهة
 • الرائحة •

كيف لا وفي الصعلوك نفس تكبر اذا انطلقت من القيود والاعلال
 وفي الملك نفس تصغر اذا جردت من ترهات الابهة
 • واباطيل الاجلال •

لم اذا يحسد الانسان هولاء الاغنياء والاقوياء • واولئك الملوك
 والامراء؟ ان افقر البشر حالاً • واوضعهم شأنًا واقلمهم
 مالاً • لهو من اعظم الناس • اذا كان لا يحسد احداً من الناس

— ان تحت الرماد وفوق النجوم • ما لا يرى من حياة تدوم —
 انا لا اغبط من ابنا آدم الا الرجل الحر حقاً • الحر ايماناً وعملاً •
 الحر بداية ونهاية • واني اذا وجدت مثل هذا الرجل
 لأجله فوق كل اجلال •

اما الاغنياء والاقوياء • والملوك والامراء — تباركت اسماؤهم —
 فعظمتهم اما مكتسبة اصطناعية • واما خلقية طبيعية
 وجل ما في القوة المكتسبة مسروق منهوب • ومعظم
 العظمة الاصطناعية مختلس مسلوب •

العظمة العرضية الاصطناعية • هي كالسوس في عظام القوة الحقيقية
ومن يحسد السوس في العظام • او الذباب فوق الطعام
او الجراد على الاكام •

واما العظمة الخلقية الطبيعية فهي وأيم الله من روح الله •
وانا اطأطى رأسي امام كل قوة بشرية فيها شيء من جوهر الذات
الالهية •

وان اسمى ما في قلب الانسان من العواطف الشريفة هي تلك
التي تتجلى في اتضاعه وخشوعه امام العظمة البشرية
الخلقية التي هي حقيقة الله في الناس •

- ان تحت الرماد وفوق النجوم • ما لا ترى من حياة تدوم -



داويني ربة الوادي

- داويني ربة الوادي داويني .
- ربة الغاب اذكريني . ربة المروج اشقيني .
- ربة الانشاد انصريني .

* *

الا تذكريني يوم رددت وحيك بين قوم لا يشر كون مع البعل لها ؟
ويوم قدمت ذبيحة للزهرة من يد من لا يعرف من الالهة سواها .
ويوم ناديت باسمك في هيكل ايزيس فطرمني من الهيكل
الكهان .

ويوم تصاعد دخان بخورك على (الاولب) فاكفر منه جبين رب
الاوثنان .

- انا من وضع بخورك في مجامر الخدام في هياكل الرومان .
- انا من عقد اوتارك في قيثاره راقصات بابل وقين اليونان .
- اوتسيت ما زرعته يدي حول هيكل تموز من الاشجار ؟ .
- وما حاكته يدي لربة الفينيقيين من اكاليل الغار والازهار .
- وما خطته يدي في كتاب عبدة الشمس والنار .
- وما حطته يدي من تماثيل الطغاة ودمى كبار الابرار .

- داويني ربة الوادي داويني .
 ربة المروج اشفيني . ربة الانشاد انصريني .
 انشديني على قيثارك من الالخان التي تردد صداها اليوم طيور
 الغاب وشحارير البستان .
 انشديني من الانعام . التي يطرف بها الرعاة الانعام .
 صوت نايك في الدجى . وصوت ارغتك في الضحى . اسمعيني .
 الى صوت عبادك على ضفات الانهار . وصوت اولادك في القفار .
 اهديني .
 انشري الان حول سريري . ما كن في الحقول من عبري .
 اسكبي الان فوق راسي . ما تركته الاحقاب في كاسي .
 الحفيني بحبك . ضمخيني بطيبك . انعشيني بهمس شفتيك .
 وبلمس اناملك .
 رددى على مسامعي الان . ما نسيته مما علمتني من الالخان .
 اسمعيني الان . ما رددته عنك في مجالس قين بابل واليونان .
 داويني ربة الوادي داويني .
 ربة الانشاد اصلحيني .

* * *

- انا ناي الرعاة من عبادك . انا عود العشاق من عبادك .
 انا ارغن المتشرد من عبيدك . انا كنارة الراقصات ليلة عيدك .
 انا النفس التي تتجلى فيها عرائس جمالك . وتنبعث منها اشعة

نورك . وتنطبع عليها اسفار حكمتك . وترف فوقها
بلابل سحرك .

انا صوتك حسدته الدهور . انا روحك ازلت في الفيدا وفي الزبور .
انا رسولك الى صفوة العباد . الى خير من زين الاحلام في المعاد .
بل الى كل من هام في كل واد .

انا وحيك في نشيد الانشاد . انا نورك في نفس من سربل التوبة
بالانشاد .

انا في قيثارك نعمة حبسها الجهل ضمن جدران الاهرام . بل انا
اغنية رددتها الليالي على الاعوام .

انا في قيثارك روح الفقنس تحت رماد المنون . بل روح ارفيوس
فوق امواج الفنون .

اجل انا قيثارك . وانا صوتك . وانا نشيدك .
ولكن يداً ائيمة خنقت البلبل في القيثار . وقطعت منه الاوتار .
فجات اليوم بنات الهديل تداوي بسجها سجمي
الليل .

داويني ربة الوادي داويني .

ربة المروج اشفيني . ربة الانشاد انصريني .

* * *

المسيني باناملك . تعيدي الي بها . ملكي .

عوديني في الاسجار . تشتد من نسماك الاوتار .

- اغسلي جراحي بموجات من فيوضاتك الالهية •
- ضمدي اوتاري برقية من رقياتك الموسيقية •
- اعيدي اليّ ما سلبتني الآلام من مجد الحياة الشعرية •
- ضمني الى صدرك بنت الازل والخلود • فتزول عن جفني كآبة
- الاجيال • ويشمر في عقم الجدود •
- من يوم هجرت واياك الجفان في قديم الزمان • ما رأيت اجمل من
- الحب فيك الا الحنان •
- فتمام اليوم هذا الصد والجفاء • وهذا الهجر والنسيان ؟
- اذكريني ولو مرة في ظلامي •
- عوديني ولو مرة في مناسي •
- انصريني قبل ان تدبل ايامي •



غصن من الورود

- ركبت في الامصار البعيدة هوائي وأرحته من عنانه •
- غرست في بساتين الغرباء حي فنور قبل اوانه •
- غرسته في ارض سمراء جديدة فناحت عليه زهور زمانه •
- طرحت بذور حي جزافاً ذات اليمين وذات الشمال •
- طرحتها في سهول الحرية. فاحرقها قيظ الفوضى وداستها ارجل الهمجية
- طرحتها في انجاد العلم فاييس ما نبت منها الصرّ وحملت رياح النزاع
- البقية الى حيث لا ادري •
- طرحتها على شواطئ نهر الفلسفة الراكد فذوت في ظلاله الظليلة-
- ماتت لانها لم تر نور الشمس •
- غرست حي في غياض الحضارة الغيضا. فادمتها الاشواك • خنقه
- العليق • قتلتها الجذور السامة •
- غرسته في ارض الاحياء والخلان فمات بالاستسقاء. في مستنقعات
- الكذب والرياء •
- غرسته في حقول التجارة • تجاه طواحين التمدن • بين بيت الصراف
- وبيت الكاهن • فتواطأ الاثنان عليه ومدّاً في قلبه البلاط رصيفاً
- للصوص •

لاولئك اللصوص الذين يوّآ كلون ويشاربون القضاة •
 ذهبت بجي الى الفقراء والبوساء فغرسته في ارضهم الجدباء فلم ينبت
 غرسه في دار ام الحي • فاقتلعتة ورمته قصياً وهي تقول: اذهب
 في طريقك • جاءنا قبلك معزّون فقتلوا - صلبوا -
 حرقوا • نطلب انصافاً وعدلاً • لا تعزية ورحمة •
 جزت حي البوساء الى مغاور اللصوص والاشقياء • الى المنبوذين
 والمقوتين •
 وغرست بينهم غصناً نضيراً من حي فعماش قليلاً نجيلاً
 ومات •
 مات في ظلمات البوساء والجاحدين • دخان تجديفهم اعماه • صراخ
 قنوطهم ارداه •
 مات في كهف المنبوذين • خنقته روائح البذائة في فم الجاني
 وفي فم البغي • فكفنه الفاجر بلعنته • وجلقت
 الفاجرة فاها فوق جثته •

* * *

هجرت المدن وتلك المدنية ور كبت البحار •
 نثرت على المياه حي كما تنثر شمس تموز ماسها ولا ليها •
 نثرته صباحاً فتلونت الامواج من اهواءه • نثرته مساءً
 فتوهجت من نيرانه الآفاق •

كلم حي السحاب فاجابه • دعا البحر قلباه •
لمس حي الافاق بانامله فارتعدت وتموجت مبتهجة متوهجة •

* * *

في صبح يوم من ايام الربيع بعثت حي راندًا في صحراء جديدة
فمضى ولم يعد اليّ •
ناديته من قم لبنان فلم يجبني •
فتشت عليه في الافاق ووراها • في مشرق الشمس ومغربها • فلم
اجده •

تركت حي يهيم ثانية على وجهه •
فركب هواه مرة اخرى وتركتني اتحسر واتأسف عليه • آه عليّ •
أواه عليه •

* * *

في وطني • في ارض اجدادي • في التربة التي ذاقت قديماً حلاوة
ضربة المعول • في يد رجل قوي • غرست غصن ورد
طري •
غرسته والآمال تدفعني والعزم يعقد شفتي •
غرسته في مكان عزيز • جماعته في حرز حرير • بعيد من الحضارة
والناس •

ولا فرق عندي الآن ان صمّت مسامعهم وان فتحت •
ولا يهمني اذا استحجرت قلوبهم • او استحالطيناً • او ذابت

ماء معيناً .

انت ايتها الارض امي وسأفرح يوم تضميني الى قلبك كما تضمين
الغصن الذي انا الان غارسه .

انت ايتها الارض حية ابدًا - ابدًا تحبلين وابدًا تلدين .
• مهما كان ظاهرهك فالشعور فيك لا يموت . النار في قلبك لا تخبو .
الخريف يزيل الوقر من اذنك . والشتاء يحتفظ بقلبك . والربيع
يجري على لسانك . والصيف يريك ثمرة احشائك .

ومن افصح منك في الربيع واكرم منك في الصيف ؟
من اشد عطفاً وتهيجاً منك في الشتاء . من اشد سمعاً في الخريف ؟
من ارحم منك ايتها الارض . من الطف واشفق واحلم ؟

تقبلين منا الاقدار وتعطينا عوضها الازهار .
تستنشقين نتانة امراضنا وروائحها وتمعديها الينا شذاً طيباً .
تسكب لك السماء كأساً من الماء الزلال فيعكره الانسان فتفيضين
عليه مكافأة خيرتك ومراحمك .

ارض اجدادي افتحي لي قلبك الآن .
لا تجهمني . لا تعبثي برجائي وعملي . لا تجبسي حبي عني دهرًا .
ايتها الارض التي نقبها ابي . وصلت تحت اشجارها امي . لا
تودعي آمالي الصخور . لا تحمليني الى قمم الجبال فتقتلها هناك
الثلوج والرياح .

على كتف هذا الوادي الذي ردد صدى صراخي وغنائي صغيراً .
 في هذه الارض التي هجرتها قبل ان هجرتني الصبوة .
 غرست غصن ورد طري .

كلمت الارض بيدي لا بلساني . حصبتها ونقبتها بمعولي الصغير .
 أطعمتها من ذاك الاسود الذي تفرزه المواشي ومن
 ذاك الاصفر الذي يكاد يشتعل في الصحراء . من قبلة
 الشمس ويكاد يذوب على السواحل من قبلة الامواج .
 سقيت غصني من ماء النوء اذ وحجبت عنه في الطفولة نور الشمس
 رفعت فوقه سرادق حبي في الصيف ونثرت حوله اوراق حب
 الخريف في الشتاء .

ولبثت اذ ذاك انتظر جواب الارض وحكمها .
 كم مرة زرت غصني وهزته مستخبراً فلم تبد عليه من الموت
 اشارة ولا من الحياة .

كم مرة افتقدته وقلبت فيه الطرف مستقصياً اخباره .
 كم مرة وقفت امامه والفؤاد يتموج بين اليأس والرجاء .
 تباركت ارض اجدادي . فقد حسن في عينها اجتهادي .
 تباركت ارض امي . فستريني الورد على غصن تعبي وهمي .
 نعم ان الارض كلمتني . اجابت الارض سؤالي . رددت الارض
 صدى حبي .

فها ان غصن الورد ينطق كالطفل .

قد بدت على شفثيه لفظة الحياة . واثرت في قلبه الكلمة التي
تساقطت عرقاً من اناملي ومن جيبني .
في فمه لؤلؤة صغيرة ملفوفة بلفافة ذهبية . وفي صباح الغد
تستحيل لفافة لآزوردية . وتبدو اللؤلؤة زمردة
نحيفة زدية .

وبعد غدٍ او بعده ينشأ من الزردة صدفة خضراء . في قلبها بجور
من الورد لا ترى واجيال من الحياة لا تعد .
في قلبها اوراق خضلة صغيرة ملتفة حول عرق نحيف طري لا
يعرف بعد اسم الشوك ولا معناه .
في قلبها اغصان . وفي قلب الاغصان ورد . وفي قلب الورد بذور .
وفي البذور الابدية والخلود .

* * *

كلمتني ارض اجدادي . احيت في الرجا . ضمت الى صدرها
طفل حي وغذته فاحيته بجميل حبها .
نفخت فيه من روحها الازلي فتحرك لسانه .
هو ينطق بما تلقيه اليه من آيات الحب والجمال والحكمة والرجاء .
اين فصاحتي من فصاحتها ؟ .
لا تنطق الارض الا لتحي . لا تتكلم الا لتزهر وتثمر .
ما قالت « لا » بزمانها قط . فان كان جوابها ايجاباً « فنعم » وان
سلباً فسكوت ابدي .

- كل آياتها جميلة • كل اقوالها منعشة محيية •
- وليتها تعلم بنيتها القول المشر المنعش الجميل •
- او ليتها تعلم بنيتها السكوت •

* * *

كأني بالارض تقول : ليكن عندك ذرة من الايمان بي واعطني
ساعة من العمل فاعطيك عوضها مئة بل الف ضعف
من الحب والرجاء من السرور واللذة من العزم والنشاط
من الحياة البسيطة النقية التي لاسعادة للانسان الا بها

* * *

كل جرثومة على غصن الورد الذي غرسته هي لفظة من الفاظ
الارض العذبة • هي رسالة حب من الام لبنيتها •
كل برعم من هذه البراعم هو عقدة من عقد الكون • هو سر
من اسرار الحياة • في اي عصر ولدت ايتها الوردة •
اي ارض شاهدت اول زهرة من ازهارك واستنشقت
اول نفحة من اريجك ؟

من زرع بذرتك الاولى • من غرس اول فرع من فروعك ؟
اول غصن من اغصانك الاصلية الاولى - من نقله من الحقل الى
البستان • من الوادي الى حديقة الانسان ؟
ايتها الوردة البرية بل الوردة السرية من اي دغل نشأت وفي اي
سلم من النباتات الشوكية رقيت ؟

لا تتكلم الارض رمزاً • الارض لا تأمن بنبيها على اسرارها •
 احترز من شرك العلة الاولى • لا تبحث في اصول الاشياء •
 متع نظرك ونفسك فيما تراه وتسمعه وان شئت الدخول الى هيكل
 سر الاسرار فتجرد عن الجسد قبل ان تطأ اسكفة الباب

* * *

اني لاجد لذة شبيهة غريبة في مشاهدة هذه البراعم الجديدة وفي
 مراقبة نشوتها ونموها •
 عددتهم والله مراراً كما تعد الام اسنان طفلها •
 افتقدتهم مراراً كما تفتقد الطيور عشوشها •
 تلهفت، اي تلهف على برعم واحد نثرته الرياح منها •
 ولكن زمن السرور قصير • تكاد زبدة الاشياء تذوب قبل ان
 تجمد •

* * *

اواه صرت اخشى الاقتراب من وردتي • فقد ائت فروعها • والتفت
 اغصانها • وقسيت اشواكها •
 اواه صرت انظر اليها بغير العين التي شاهدت نشوء براعمها ونمو
 فروعها •
 لهفي على وردة الحياة • تريني الف شوكة قبل ان تفوح بنفحة
 واحدة من شذاها •
 تجرحني مئة مرة قبل ان تعطيني زراً واحداً من ازرارها •

فؤاد^(١)

١

عند مهد الربيع

عرفتك قبل ان اخضرت من نسמתك الاولى صدور الحقول
وجوانب الربى .

وقبل ان نور المهد من حر شفتيك .

وقبل ان بدد نور عينيك غيوم الشتاء فهدأ البحر وانجلى السماء .

* * *

عرفتك قبل ان حاكت لقصورك الجبال طنافس من العصفور
والاقحوان .

وقبل ان اعدت لسريك النمارق من الرياحين وریش الصنوبر
وشقائق النعمان .

وقبل ان ملأوا كأسك من دهن اللوز وماء الورد وعصير الرمان

* * *

عرفتك قبل ان نصبت لك العاصفة الاخيرة قوس نصر من دمه
ودمعها وزفيرها .

(١) ابن اخته فؤاد يوسف صادر ولد في ٢٧ نيسان سنة ١٩٠٨ وتوفي

في ٢٠ ت ٢ سنة ١٩٠٩ فاستقبله بالقصيدة الاولى وودعه بالثانية

وقبل ان ولت من النجوم الباكيات واقبلت الضاحكات تجر
ذيوها الفضية فوق صنين .

وقبل ان لحفتك شمس الضحى باشعة الحب والحنان .
وقبل ان رفعت فوق سريرك عند الغروب قبة من نورها الولهان .

* * *

عرفتك قبل ان سدلوا على وجهك نقاباً من الغمام . ليحجبوا
هناك هنيهة رب الانام .

عرفتك قبل ان عرفت عينك معنى الدموع واسرارها .
وقبل ان ذابت عن اهدابك الثلجة الاخيرة وسقطت عليها
القطرة الاولى من ندى العشق والحياة .

عرفتك قبل ان نور في خديك الورد . وتلالات على شفتيك
الابتسامة .

وقبل ان غردت في الغابات اطيارك . وعطرت الآفاق رياحينك
وازهارك .

عرفتك قبل ان سمعت آذانك هتاف الانهر وعويل الرياح .
عرفتك قبل ان عرفت من الحياة الفسق والليل والصباح .
هزرت سريرك بانفاس كانت لهيباً قبل ان صارت نسيماً .
واصبحت حياة بعد ان كانت سديماً .
وكان ربك بذلك عليماً .

هزرت سريرك باليد التي احترقت مرأ فاستحالت مسكاً وبخوراً

حول السرير الكمين .

- باليد التي اكتسبت زغباً تحت رأس امير الرياحين .
- باليد التي نور في اناملها الجلنار وفي راحتها الترجس والياسمين .

* * *

- هزرت سريرك قبل ان تما الفؤاد مني آساً وغاراً تحت قدميك .
- وقبل ان فاض ابتسامي نوراً فوق عرشك .
- وقبل ان هطل غيمي دمعاً حول سريرك .
- هزرت سرير طفل الربيع قبل ان سار كلي قسماً من سريره :
- هزرتة في الاعماق . ففاح اريجه في الآفاق .
- هزرتة في اعلى عليين . ففردت بلابله في الرياض والبساتين .

* *

- عرفتك قبل ان ودعتك السماء . وقبل ان عرفتك الغبراء .
- ولكنني استغربت صراخك يا ابن الزبيع ويا ابن السماء .
- ان لفي بكائك سرّاً لا تذيبه الازهار .
- وان لفي سكوتك لغزاً حفظته النجوم والاقمار .
- وان لفي نظراتك المبهمة الندية شيئاً من غوامض البحار .

* * *

أجئتنا من الم الفراق باكياً . ام جئتنا الوحشة شاكياً ؟
 اين منك الروح التي تلقي في العيون سحراً حلالاً فيذوب حباً
 وجمالاً ؟

لبن منك الا حدالك الذي يلتهب في العالم نجماً فيشع في الشاعر خيالاً ؟
 بل اين من نفسك الان ما حير البرية في الانسان ؟
 اين منك تلك القوة التي اغلّت الصاعقة . وذلت البحار . واسترقت
 الرياح والكهرباء . والبخار ؟

* * *

اتحلم ملائكة السماء بفراش الارض وخنافسها ؟
 او تذكر الفراشة يوم سارت تحت جناحها الشمس ؟
 افي خطوط هذه اليد الصغيرة البضة آثار حبك النجوم واسرارها ؟
 او تحت هذه الاهداب الناعمة قبس من نورها ونارها ؟
 اتذكر شفقتك الكاس التي سقتكها زنبقة الوادي ؟
 اتذكر الغدير الذي كان يغسل قدميك يوم كنت مضطجعاً مع الدفلة
 تحت ظل الدلب والصفصاف ؟
 اي ابن الوادي . ان فيك من بهاء الربيع ما فيك من مجد السماء .
 ان لفي هذه الوردة البشرية جذوع الماضي واريج الحاضر وبذرة
 المستقبل .

اقبل رجلك لانني لا انكر الماضي ولا انبذه .
 واقبل عينيك لانني اراك شاخماً الى العلا .
 واقبل سرتك لرمز فيها بليغ جميل .
 ففي السرة سلسلة الحياة التي لا تتم حلقاتها ان لم تقطع
 يقطعها الانسان فيعيد وصلها الله .

فاذكر قبلاتي الثلاث ان عدت في مستقبلك البعيد الى ماضيك
هذا القريب .

واذكر ايضاً ان في كل قبلة حسرة ما زادها العلم الا اشتعالاً .

* * *

عرفتك قبل ان ودعتك السماء وما عرفت من سر هذا الوجود
سوى الحاء والباء

عرفتك قبل ان عرفت الربيع وقبل ان هزرت سريره الخفي .

عرفتك قبل ان اسرنا فصرنا بديع قواف لشعر الهي .

نظمنا الاله واودعنا سرّاً من اسرار بيانه الازلي .

وقال عليكم بنجم سريع فهو فيكم ومنكم يضي .

بهاء الحياة ومجد الحياة اليكم بنوري اليكم يدي .

فجئنا نجوم النفوس عراة وقينا الخجول وقينا الخليع .

اشدنا هناك بسعد تساوى الملاك العصي به والمطيع .

شهدنا هناك ظلاماً تلاه بهاء تلاه ظلام سريع .

وقفنا حيارى وفي الظلمتين ضياء الحياة يضي ويضيع .

شهدنا الدياجي وفيها الاحاجي فهذا الاله وهذا الربيع .

ذهلنا فقلنا : اربي لماذا ؟ فقال : اسقطوا من مقام رفيع .

وقفنا . دهشنا . سألنا . سقطنا . فجئنا وسر القريض نذيع .

فديوان ربك هذا الوجود وفيه السخيف وفيه البديع .

وانت ابن اختي بيت القصيد وخالك شاعر رب الربيع .

٢

عند لحد الربيع

- ومثل خيالي اشرقت يوماً وذببت قبيل الصباح فواد .
- ومثل خيالي انسيطني نعيم الحياة وبؤس العباد .
- ومثل خيالي أسكرتني فقلت : « اليراع » فقلت : « الحداد » .
- ومثل خيالي حيرتني رحلت وسرك في ذا الجماد .
- بهاء جمالك في تربة عجبت لترب جمالاً يعاد .
- ونور عيونك في ظلعة عجبت لنور شديد السواد .
- وبلبل نفسك في وحشة - بل بلبل نفسي في تي البلاد .
- وحلو ابتسامك تحت الازاهر ألبس روعي شوك القتاد .
- فراحت الهة حبي تهيم وتبكي فواد في كل واد .

* * *

- لله انت من وردة سرية ناطقة فرطتها يد القضاء .
- لله انت من شعاع فهم عجيب زال كالظل في البيداء .
- لله انت من طير اسف فوق بحر الحياة فذاق ملحه وعاد الى الفضاء .
- لله انت من طفل سجدت له اطفال السماء .
- ايه اطفال السماء ! وهذا ربيعي اصبحت ثلجاً فليت الربيع وليت
المعاد .

- وليت النجوم تحدث عنه فهذه تجاليد في جماد .
- وحلو ابتسامه تحت الازاهر ألبس روعي شوك القتاد .

بنات خيالي انيري حول خيال فوادي في كل واد .

* * *

كشفق من اشفاق الايام . كحلم من جميل الاحلام . كوميض
برق لاح في الظلام - كذلك كان ابتسام الحبيب .

كنفحة من نفحات الجنان . مرت مع نسيم الفجر في البستان .
فرنحت الورد والبيلسان . وايقظت الشوك في القرقفان .
كذلك كانت حياة الحبيب .

كفراشة مختبئة بين الرياحين . امسكها عدو كين . فدفعها الى
جهلة ظالمين . سمعت ادواتهم الانين . فيكت حظ
مثل هؤلاء البنين - كذلك كان نصيب الحبيب .
ويلاه من طب اجهز على الحب .

ويلاه من طب هو الشوك في نبت غمنا . ومن طبيعة هي امنا .
ومن قبور هي لحمنا ودمنا .

بها . جمالك في تربة عجبت لترب جمالاً يعاد .
ونور عيونك في ظلمة عجبت لنور شديد السواد .

* * *

ركضت حولي في الدار فعلمتني حب الصغار . حباً طاهراً صافياً
كله ازهار .

وقفت الى جانبي في عزاتي فكنت حبيبي وسيدي ومعلمي .
فتحت امامي ابواباً عجزت عن فتحها حكمة الحكماء . وسدتني

بما لا تضاهيه شوكة الملوك والامراء • وهديتني سيلاً
ضلت في سبيله العلماء •
انكرت سلطة المسيطرين • فجتني وسلطتك من اعلى عليين •
لله من اطفال هي ملوك في قلوب الرجال •
لله من ضعف صولجانه فوق صولجان ملوك الزمان •
كفرت بحب الاطفال فبعثك الله الي رسولا •
وصرت عندما اشاهد طفلاً احبيه باسمك ساجداً • واقبله واجداً •
انما هؤلاء رسل الله في الناس •
رسل هم الاطفال - رسل الحب والحنان والواجب والجمال •
رسل كلماتهم سلام • وسيوفهم ابتسام •
لله من رسول انت اخلصت لك الايمان • وكنت لك اطوع من
البنان •

ولكنك اليوم حيرتني رحلت وسرك في ذا الجهاد •
ومثل خيالي اشرقت يوماً وغبت قبيل الصباح فواد •

* * *

اقمت في وادينا صيفاً واحداً كنت فيه الصيف والربيع • وكتبت
في قلوبنا آيات هي خلاصة البيان والبديع •
نظرت الى السماء مساء فادهشك كوكب هناك •
مددت يدك الى القمر كأنه داحة في ذراك •
سمعت انغام الموسيقى فطربت لها كأنها بنات بديعك وذاك •

عطفت على الازهار واحببت الرياحين كأنما صنعتها يداك .
 حسدك الحسون على زقزقتك . والحمام على حر كاتك . والورد على
 شذاك .

حييت كل عابر طريق باسمأ وفي كل امرىء حبيت اخاك .
 كدت تشعر بالخطوب قبل حدوثها فادمعك قبل ان يدمعنا بلاك .
 كللناك بالورد والغار . يا حبيب الرياحين والازهار .
 وفي ربيع السماء الخالد دموعنا طل في الجلنار .
 بل زهور في افلاك تدار .
 بها جمالك في تربة عجبت لترب جمالاً يعاد .
 ونور عيونك في ظلمة عجبت لسور شديد السواد .

* * *

من هضاب جللتها السماء . الى مدينة خيم فوقها البونس والشقاء .
 حملناك والغم يحملنا الى منبت التمويه والتليس والادعاء . الى
 حمى الاطباء .

ضربت في موطن الفهم والنور . فكان داوئك ذكاك^(١) . دماغ
 هو النبراس . في غشاء هو القرطاس .
 ويلاه من هذا الشهاب . وهذا الالتهاب .

في فترة من الزمان سقيت من مر الحياة مما يغص به جبابرة الزمان .
 يوم اسففت وقعت فكنت احجية في دائك . كما كنت احجية

(١) اصيب بداء ال (مَنَاجِيَت) اي التهاب غشاء الدماغ .

في ذكائك .

قال المداوون وقالوا . وضربوا في ميدان الحدس وجالوا . وانت

بعيد عن جهل هو عندهم اليقين .

مددوك على لوح التشريح وانت مسرع الى من لا يحسد في

شؤون العالمين .

اشموك المخدرات . وانت في غنى عن هاته الترهات . كيف لا

وقد اشلك الداء وخدرك الدواء .

جاء الجزار واعوانه بادواتهم وعقاقيرهم . واحاطوا بك ليعمدوك

عن ملائكة اسرعوا الى لقاك .

بضعوا الجلد . كسروا الجمجمة . اجالوا ادواتهم في الدماغ -

ويلاه من اطباء . يخبطون . بل من جزارين يجرزون .

قطبوا الجرح . لفوا رأسك بالشاش . كفنوا وجهك الاصفر باوهمهم .

ضمخوك بروائح العذاب والموت . وتركوك على سريرك .

لامك . لا بيك . لخالك . لريك .

كفناك باغشية قلوبنا وكللناك بالورد والرياحين . بكينناك باسم

كل ما احببته واحبك في وادي الامين .

بهاء جمالك في تربة عجبت لترب جمالاً يعاد .

ونور عيونك في ظلمة عجبت لنور شديد السواد .

وحلو ابتسامك تحت الازاهر البس روعي شوك القتاد .

فراحت آلهة حيي تهيم وتبكي فوادي في كل واد .

النفيس الراحلة (*)

- على ابواب الجنة تنتظر الارواح احبايها .
- بل تنتظر الاحباب ارواحها .
- آه على المحبين . المودعين والراجلين .

* * *

- اقف عند جثماني . لا ودع اصحابي وخالاني .
- ومن فوق نعشي . احبي الاعزاء المودعين .
- اتجذت الموت منبراً . فرأيت من علاه ما لا ترون . وسمعت
- ما لا تسمعون .
- جموع مثلكم يعولون في شمال الارض وجنوبها . وارواح مثلي
- ينتحبون .
- في السفينة التي تعبر نهر الموت والحياة . من ابناى الارض عظاما .
- وعظيما .
- هم رفاقي الان الى الجنان .
- فلا تياسوا . ولا تجزعوا .
- الموت خرافة مرهبة . الموت صورة فانية . الموت منبر الخلود .
- الموت هو الدرجة الاخيرة من سلم العذاب . فلم

(*) تذكراً لراحيل دريان المتوفاة في ١٣ اذار سنة ١٩١٠

تتحنون • ايها الاحباب ؟
 على ابواب الجنة تنتظر الارواح احبابها •
 بل تنتظر الاحباب ارواحها •
 آه على المحبين • المودعين والراجلين •

* * *

ما بالكم تتحنون • اواه ودمعة الفراق من يكفر بها ؟ دمعة
 الوداع من يجهلها ؟
 دموعكم كالوابل المتساقط على بحر هاجت امواجه •
 دموعكم تسكن الزياح •
 دموعكم تنور حول الراجلين زهراً • وتتكون في صدف الحب
 لؤلؤاً ودرأً •
 دموعكم نور يضيء ساعة الفراق المظلمة الموحشة •
 دموعكم نقط لكلمات سفر الحياة •
 دموعكم ازهار على ضفتي نهر الاحزان • ودموع الراجلين طل في
 كوؤس هاته الازهار •
 آه على المحبين المنتحبين • المودعين والراجلين •

* * *

ساعة ازمعت الفراق • بدت لي اشياء من هناك - من وراء
 الكواكب والاقبار •
 ساعة علت صيحة الاحباب • رفعت الي اعلام جميلة من خلال

الضباب .

على ضفاف انهر الابدية . في ظلال السدر الندية . رأيت الراحلين .
على فرش من السوسن متكئين . وسمعت اطيّاراً تغرد

حولهم : « الى حين ايها المنتظرون الى حين »

في تلك الظلال احبائي حيث الورد لا يذوي والربيع لا يزول .
حيث الحب يلعب متلهياً عن التنسائي في جمع اصداق الحزن
ولو لوّ الرجاء .

هناك على احدى الروابي . انتظر احبائي .

وانسج لهم من ازهار الدموع والسرور . اكاليل مجد لا تبور .
وادخل واياهم بيتاً جميلاً خالداً من الحب والحبور .

* * *

على ابواب الجنة تنتظر الارواح احبابها .

بل تنتظر الاحباب ارواحها .

آه على المحبين المنتحبين . المودعين والراحلين .



معبدي في الوادي

ايه ام الطبيعة بل امي . جئت اجدد معك آمال الحياة وسرورها .
 جئت اجدد عهدي وايماني مع كلا . الحقول وزهورها .
 جئت اردد تحت هذه الافان الخضراء . ابتهاج ابنائك الاتقياء .
 وقفت على ضريح الشتاء ليلاً . فشاهدت هناك مشهداً جليلاً .
 شاهدت ربة الربيع تقبل جبين ابوها . فينور الاقحوان تحت
 شفيتها .

رأيتها تكتب بدموعها سفر الخلود . فيرده العصفور في الجلمود .
 ورأيت الاولاد في الحقول حفاة . يقطفون الزهور خير من تألم
 في الحياة .

فقلت في نفسي ونعم الايمان . في قلوب الصبيان .

* * *

ان في قلبي اليوم شيئاً مما في قلب جاري . وفي قلب الغاب اثراً
 من اثاره .

ألا ان قلبي في عقل هذا القروي . وعقله في قلبي الخفي . والذي
 يراه تحت الكلاء . اراه انا في السماء .

والذي يراه في الارض المنبثق منها نور العالمين . اراه في اكمام
 الورد او في براعم الياسمين .

فاذا كنت ارى ذلك في الحقل فلماذا ابرح الحقل ؟
 الأسمع في الكنيسة وعيد من لا يعرف من اسرار الحياة • سوى
 ما قرأه في كتب اللاهوت والصلاة •

ان في ورقة من اوراق التوت • سرًا لا يكشفه اللاهوت •
 الى الوادي اذا • هناك بين اشجار البطم والزمزيق وتحت ادواح
 الصنوبر والسنديان • اشيد هيكل الايمان •

اراني هناك في بيتي • بل في بيت الطبيعة • بل في بيت الله •
 ورفقائي هم حقاً احبائي • هم اخواني • حباً بحبي وايماني •
 ان هيكلي لقريب من سلسبيل فضي ذهبي يجمع بين الدم الجاري
 في العروق • والصبيب المتصاعد في الاشجار • واللبن
 الذي يحدد في النبات حياتها • وفي الازهار اريجها
 والوانها •

وان منبر مرشدي هو مسرح الانشاد والتفريد • لا منصة
 التحذير والوعيد •

اسمع همس الافنان • وهي تسبح في قلبها الرحمن • وقد احيها
 النسيم العليل • الذي جاءها اليوم من بلاد الجليل •

* * *

سماع ! قد بدأ الدوري بتلحينه والسنونو بانشاده •
 سماع ! ان من حلق الحسون الذهبي تتدفق الانعام الفضية •
 ان الاطيوار تدعوك الى تجديد ايمانك وامالك في الحياة •

- هي تفتح لك ابواب السماء مفردة • ولا تبعدك عنها متهددة •
 هي تدعوك الى العمل • وتنفخ فيك روح الجد والامل •
 اي ربة الغاب ان رؤسا • هيكاك يرددون صدى نشيد الربيع
 لا صدى منطلق « الغوري » والمعضلات •
 وشتان بين « الغوري » والدوري • وبين الحسون والخورى •

* * *

في ظل القويسة والغار • وبين الصعتر والوزال والخنشار • وبالقرب
 من ضحضاح يشف عن نباتات حية تحت الماء • وفوق
 النهر الجاري تحت قدمي هذا الوادي الرهيب • ابني
 لك ايتها النفس هيكلأ من الايمان • يومه في
 المستقبل البعيد من اخواني والقريب •
 بل اقيم فيه تمثالاً للوداد والاخاء • وادعو اليه كل بشر تحت
 السماء •

فيه احى اليوم انفس المستقبل ومستقبل الانفس العظيمة •
 وحياتي لا ترري بحياة الخنافس والدبابات • لان الناموس الذي
 يجر كها تحت الكلا • يجر النجوم في حبكها
 والسيارات في بروجها •

* * *

ان الاريج المنتشر من هذه الادغال هو البخور الذي يحرقه
 الربيع على مذبح الحياة والايمان •

هو اريج الزعرور والقندول المختبئة اشوا كهها الآن تحت نقاب

جميل من الازهر الصفراء والبيضاء .

بين هذه الادغال الشذية . وتحت شعاع ابتسامة الاشواك . يلذ

لي التأمل في من مات ليحيي الحب والوداعة في الناس .

بين هذه الاشواك يحملني الخيال الى حيث وضع الاكليل على

رأس الشهداء .

على ان الزمان لم يبق منه سوى الازهار التي تنور كل عام في

قلوب الاتقياء . مثلما ينور القندول والزعرور في

الغابات .

فباسمك ايتها النفس الالهية اصنع لايماني اكليلاً من زهر

الزعرور لا من اشواكه .

باسمك أشيد لحي هيكلأ من خشب السنديان . وازينه

بالصنوبر والنيلوفر وبقار البيلسان .

والى اتباع الذي صُلب وبني الذين صلبوا اقول : تعالوا نسبحه

اجمعين في وادي المسرة لا في وادي الدموع . تعالوا

نتصافح تحت السماء . حيث لا حاجز يحول دون

الحب . ولا ما يحول دون الاخا .



انا غريبان ههنا

او

جمعة الآلام

كلمة همسها التسيم في اذن رعاة الجليل فسمعتها الدهور ورددتها
الاجيال .

كلمة من اغصان الزيتون في اورشليم زلزلت العروش واسمعت
ملوك الارض صوت ذي الجلال .

كلمة زرعها دموع المرأة تحت الصليب . فنوردت في السماء وكان
فيها مسك ختام النحيب .

هي كلمة الربيع في كل عام . بل نشيد الاطيار على الدوام . بل
اغنية الازهار في الحقول والآكام .

وان انفس الناس النبيلة . لتتجسد في مظاهر الربيع الجليلة .

ان في كل نفحة من نفحات الربيع . روح بشر عظيم وديع .

ان العام في هذه الايام . يحتفز بفوز امراء الحب وملوك السلام .

وان اكليل الشوك لاعظام من تيجان القياصرة . وكأس المر

لاطيب من خمرة الاكاسرة - وقد يدرك هذا الانسان .

فيظل من عبيد الزمان . بل من اسراء الغرور والبهتان

* * *

جئت الكنيسة لاردد اليوم مع الناس ذكر امير الناس • بل
 ذكر الحقيقة التي يعز نصرها بالمذاب • وتحلو بمر
 • الشراب •

دخلت الكنيسة وفي نفسي من احد النخل والزيتون ما لا ينسيني
 اياه يوم الجمعة الاليم •

بل في نفسي من السرور والابتهاج ما لا يضاهيه فرح الناس في
 العيد العظيم •

ان في هذا اليوم يجتمع القمر والشمس • فيشرق الغد على
 المستقبل ويشرق على الحاضر الامس •

في مثل هذا اليوم ولد على الصليب الكريم روح بشر صميم •
 انه ليوم حبور ايها الاتقيا • لا يوم حزن وبكا • بل لبس وريا •

* * *

وانما نحن في جنازة المسيح • وهذا وربي تجديف قبيح •
 ان وراء ذلك الستار الاسود الصليب • وامامه الاباء ووجه كل
 قطوب كئيب •

هم يجتزون من لا يعرفون • بل يدمدمون وينعبون • والناس
 اليهم شاخصون •

ويلاه انا الوحيد الذي لا يرى ما يراه الاباء • ولا يشعر بما يشعر
 به هؤلاء الاتقيا •

ها قد مشى في الجنازة المدمدمون • وهم في الكنيسة يطوفون •

وهذا الصليب • وقد تصاعد وراؤه النحيب • وامامه البخور

والطيب •

وصل الموكب اليّ • فما جثوت على ركبتني •

سرحت في الناس نظري فرأيتهم كلهم ساجدين • ورأيت بمقرب

مني رجلاً اخر من الواقفين •

فرأيت في وجه هذا الغريب • ما خالج قلبي الكئيب • وصرخت

ساكتاً : الهنا • انا غريبان ههنا •

ثم كلمته فقلت : ولمّ الجناز • ومن صلب قد فاز ؟

ولمّ هذه الصلوات المبكية • وقد اشرفت على الارض ابتسامة

آلهية ؟

مال الغريب بنظره اليّ ولمّ يحبيني بشي • •

* *

ها قد دفنوا الصليب تحت الزهور • وانجلت غيوم البخور •

وظفت الشموع • وكفكف المدمدمون الدموع •

خرجنا من الكنيسة انا والغريب ونفسي تناجي ذاك الحبيب

فسرنا معاً الى بستان من الزيتون خارج المدينة •

وجلست تحت شجرة هناك فجلس الغريب الى جانبي •

نظرت اليه ونظر اليّ • وقد استولى علينا السكوت والعي •

فكاننا حبيبان • فرق بينهما العرفان • فجمعهما الحب والحنان •

وفي مثل هذه الساعة تفصح اللحاظ • عما تعجز دونه الالفاظ •

على اني حرت في امره العجيب وقلت في نفسي من ياترى الغريب .
 وما كاد يخطر ذلك في البال ، حتى وقف امامي كالخيال ،
 فعرفت الطيف في الحال . وقد انكرته في شكل الرجال .
 وناديته مدهوشاً : اخي - رفيقي - سيدي - هذا فؤادي
 ها يدي .

نفحة من جنانك . كلمة لآخوانك .

أسمعت خدامك ينعبون ؟

أتمثالك الناس يسجدون . وهم عنك بعيدون ؟

سيدي دعني القي على كتفك راسي . فيذوب ثلج فتوري ويأسي .
 اقربني من فؤادك . لاترود من الحب الذي لا يعرفه احد من عبادك .
 سيدي اسقني من الحرية والحق والاخاء . ما لا يشوبه الخوف والرياء .

* * *

وبين انا اكلمه في البستان . طل البدر من شرفة لبنان .

فتر كني ذو الجلال . مكانه كالخيال . وذاب في القمر فوق الجبال .



عشيتة رأس السنة (*)

قم ايها الناعس المتقاعس . قم ايها اليانس من الحياة .
 قم ايها العالم الفاتر الشعور القليل الاكثراث .
 قم ايها البخيل النائم على الصكوك والاوراق .
 قم ايها المقامر العبوس المكتئب و قم انت ايها المسرور المحبور المبتهيج .
 قم ايها الساخر بافراح الشعب البسيط .
 انهضوا كلهم واخرجوا معي الى اسواق المدينة هذه الليلة .
 انهضوا من رقادكم . اخرجوا من سجونكم . اطلقوا النفس من
 قيودها .
 أحيطوا بهذا الجسم النحيل . اعطوني ايديكم ولا تخافوا .
 تعالوا معي ولا تأسفوا على شيء . فات او مضى .
 اسمعوا اسمعوا . ان الابواق تناديكم . والاجراس تستقبلكم .
 والليل يبشم ابتساماً لخروجكم .

* * *

نعم نحن في منتصف الليل .
 ولكن شمس تموز في راحة النهار لا تنير الارض كما انارت
 المدينة ليلة عيدها .

(*) كتبت في مدينة نيويورك . وفيها وصف احتفال الناس هناك باول

ليلة من كل عام جديد .

ازاهر ايار لا تبهج النفس كازاهر هذه الانوار .
 كيف لا ومن اصوات السرود في الليل ينور الاثير في الفضاء .
 وترهر جنان الجوزاء .

تعالوا واياي الى اكبر شارع واجمل جادة أريكم هناك جمعاً عجيباً
 من البائسين والبائسات يموج كالبحر الهائج ويهتف
 هتافاً عظيماً جميلاً .

وما هذا الشعب بشعب نأثر . بل هو محبور فاز بالحياة ساعة بعد
 ان عاش في حياض الموت خلال العام المنصرم .
 الي نوم احقر الاكواخ واطلم المضايق واقدرازقة المدينة اريكم
 هناك اغنى الناس واكيسهم . ارفعهم واشرفهم .
 قد جاوا وهذه الليلة ليوا سوا الفقراء . جاوا ليتفقوا شوئون
 البوتساء .

ولكنهم قصدوا الاكواخ والمضايق والازقة فوجدوها خالية
 خاوية .

في هذه الليلة يخرج الغني من قصره . والفقير من كوخه . والبائس
 من سجنه . والعبد من قيوده .
 في هذه الليلة يتجرر الانسان .

* * *

اليكم ايها الساخرون بافراح الشعب البسيط .
 تعالوا معي الى الملاهي ترونها مهجورة . والى رداه الرقص

ترونها انها مظلمة . والى مجالس الانس ترونها فارغة .
والى بيوت الشعب فتشاهدوها مزينة باغصان النخل
. والشربين وبالانوار الصينية المنوعة الالوان .

في هذه الليلة يتحرر الانسان .

يتحرر الانسان ولو ساعة واحدة في رأس كل عام .
ولو ساعة واحدة في السنة تتساوى افراد الامة وطبقاتها ويخرج

البشر من السجون التي بناها البشر .

تنطلق الرجال من القيود التي صنعتها الرجال .

في هذه الليلة لا يذكر الانسان شيئاً سوى انه حر سعيد محبوب .
ينسى الفقير كونه فقيراً . وينسى الغني كونه غنياً . وينسى

الشريف كونه شريفاً . وينسى البائس كونه بائساً .

وينسى الفاعل كونه عبداً .

ان فرح الناس في هذه الليلة لعظيم . فتكاد المدينة تضيق على ما

في قلوب اولادها من السرور والابتهاج .

نعم في مثل هذه الليلة يخرج الانسان من كل ما بناه الانسان

وشيده .

الملاهي والحانات والمعابر ورداه الرقص وبيوت اللذات كلها -

كلها لاتشفي له غليلاً . كلها ضيقة مظلمة . كلها صغيرة

واطئة .

لاشيء هذه الساعة في العالم يستحق ان يقف الانسان تحته متهللاً

ممجداً • الا الفضاء غير المتناهي • الا السماء الشهباء
 المرصعة بالنجوم • المزيينة بالكواكب والاقار •
 في هذه الليلة يخرج اولاد المدينة وبناتها ورجالها ونساؤها
 ليودعوا العام المنقضي وليستقبلوا العام الجديد •
 يطوفون في الشوارع مهلين فرحين • نافخين في المزامير والابواق •
 هاتفين في الاسواق هتاف الصبيان •
 في هذه الليلة يتحرر الانسان •

* * *

هلموا الي ايها الساخرون بافراح الناس •
 تعالوا انظروا كيف الغني والفقير • والشريف والعامل • والصالح
 والاثيم • والصاحي والسكران • والكاهن والجاحد
 يسرون كلهم جنباً الى جنب •
 تعالوا انظروا كيف العاهرات يمسن بمننا كبهن مناكب العذارى
 والامهات •
 وكلهم رجالاً ونساء • صبياناً وبناتاً • يهتفون هتافاً واحداً
 ويسرون تحت سماء الله اول ساعة من العام الجديد •
 بين الحان الاجراس واصوات المزامير والابواق •
 بين صفوف طويلة من الابنية الشاهقة المنورة • المزيينة بسعف
 النخل واغصان الصنوبر والشربين •
 يموج هذا الجمع موجاً في الشوارع والازقة •

يموج والكتف الى الكتف و كلهم في الانسانية اخوان واخوات
لا يعرف الواحد منهم الاخر .

بل كل يعرف الجمع باسره .

لا ضغينة هذه الساعة ولا حسد ولا اثم ولا شقا .

لا حقد هذه الليلة يكدر في قلوب الناس الصفاء .

نعم يسير الشريف ازاء الفقير ولا يتقزز من رائحة ثيابه .

يسير الصاحي قبالة السكران ولا يشمئز من رائحة فمه .

يسير الجاحد والكاهن ولا صلاة ولا تجديف .

يسير الصالح والاثيم . مآ . وكل انيس اليه .

تسير العذراء قرب الزانية ضاحكة مستبشرة .

والكل يهتفون هتاف الصبيان .

في هذه الليلة يتحرر الانسان .

* * *

رحمكم ايها الساخرون بفرح الشعب العام .

عودوا واياي الى زمن الصبا .

ان بين هذا الشعب المزدهم ولدآ سورياً غريب السحنة . نحيل

الجسم . اسمر اللون . مقلطح الرأس . طويل الارنبه .

غليظ الشفتين .

وهو يفتح بمنكبيه طريقاً ويتقدم مع رفاقه الاعاجم هاتفاً

هتافهم . نافخاً مثلهم في البوق . مردداً اغانيهم

ونكاتهم . مقسماً ايمانهم . لاعناً كذلك لعنائهم .
 غريب في دار الغربية نسيب في دار الجبور .
 ومن لا يأسف على زمان الفتوة وايام اللهو والسرور ؟
 من لا يقول هذا القول ويردد في ايام الكهولة هذا الكلام
 المتبذل ؟
 ويلاه أمن اليوم نتدب الصبوه ؟
 اتخذعنا السنون، نحن شبان هذا العصر فتسقيننا كاساً واحدة
 وتتقاضانا ثمنها خمسين ومئة ؟
 أتكسر الهمة الشباب الكأس بعد ان ترينا اياها ؟
 اقسم بالله ايها القارى . ان الساعات التي قضيتها في تلك الليالي لالذ
 واجمل ساعات الشباب .
 بل هي أذ ساعات قضيتها حتى اليوم - ساعات سرور صاف
 بسيط . سرور الصبيان . في بستان الزمان .
 ولكن الساقى كسر الكاس وحطمها .
 اواه أسحق الساقى الكأس وسقاني مسحوقها ؟
 وان طعم هذا المر ليذ كرني اليوم بتلك الكاس الواحدة العذبة .
 يذ كرني اليوم بتلك الليالي فاضحك عند ما اتأمل فيما كنا نقوله
 ونفعله انا ورفاقي الاعاجم .
 اي والله لم ازل اذكر اسماء بعضهم من صبيان وبنات .
 واذا كرر لما كنا نخرج لنودع العام المنقضي ونستقبل العام الجديد .

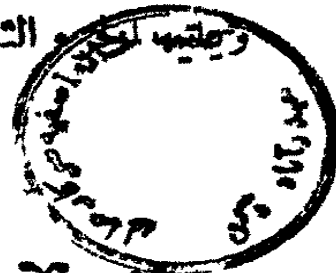
ولما كنا نقف على منعطف الشارع كل مع حبيبه ونعد الوعود .
ونعقد العهود .

رحم الله الاحياء وودادهم . رحم الله الحبيبات وعهودهن .
لا سمير الآن للروح سوى الطبيعة . ولا رفيق غير الكتاب
وبعض الاحرار الصالحين البعيدين .

والمناجاة تعني عن المشاهدة في الاحياء
ونحن في عشق البعيد من القانعين الصابرين .

تم الجزء الثاني من الريحانيات

الثالث



فهرس الكتاب

صفحة	صفحة
١٥١	٣
١٥٥	٧
١٦٠	٢٤
١٦٤	٣٣
١٧١	٤٣
١٨٣	٥٧
١٨٦	٦٧
١٩١	٨٤
١٩٤	٩٣
١٩٨	٩٨
٢٠٦	١٠٢
٢١٦	١٠٦
٢١٩	١١٣
٢٢٣	المقالات
٢٢٧	١٤٣



كتاب ملوك العرب

أبي رحلة صاحب الرياض في البلاد العربية وهو
يشتمل على ثمانية أقسام

- القسم الاول : الملك حسين بن علي
 - القسم الثاني : الامام يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله
 - القسم الثالث : السيد الادريسي
 - القسم الرابع : عدن والنواحي التسع المحمية
 - القسم الخامس : عبد العزيز آل فيصل آل سعود سلطان نجد
 - القسم السادس : آل صباح شيوخ الكويت
 - القسم السابع : آل خليفة شيوخ البحرين
 - القسم الثامن : الملك فيصل والعراق
- الكتاب مزين بالخرائط والرسوم وقد يصدر في جزئين
وسنباشر طبعه قريباً



To: www.al-mostafa.com